هيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسِّس

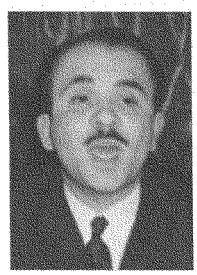

عن راحلٍ لم يفارِقْنا إلاّ مجازيًّا!

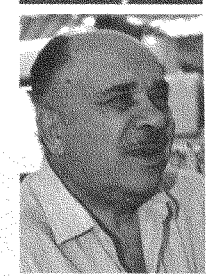

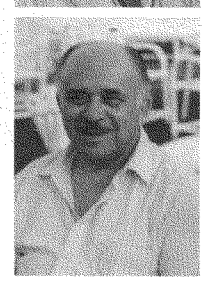

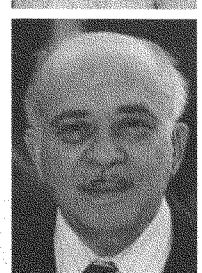

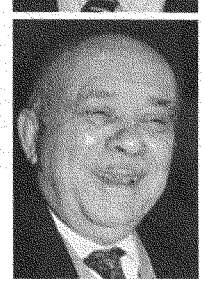

رسمٌ عن رحيل سهيل إدريس أو الموت بالتراضي ——— شوقي بزيع

لطالما رأى البعضُ إلى الموت بوصفه فعلَ خيانةٍ أو غدرٍ أو سرقةٍ موصوفةٍ للحياة. ذلك أنه يدخل على غير انتظار ليقلبَ المصائرَ، ويقصفَ الأعمارَ في ريعانها، ويضعَ نقطةَ الختام لحملة الإنسان التي لم تكتملْ بعد. وإذا كان المتنبّي قد رأى في الموت «ضربًا من القتل،» فهو لا يبتعد كثيرًا عن الحقيقة: ذلك لأنّ في كلّ موتٍ يجيء قبل أوانه نوعًا من الكمين المباغت أو الاغتيال الدموي أو الطعنة في الظهر. إلاّ أنّ هذا التوصيف لا ينطبق أبدًا على سهيل إدريس ولا على مبدعين آخرين بدا موتُهم وكأنه يجيء في أوانه تمامًا، أو كأنه يتدخّل في الوقت المناسب لكي لا يروْا بالعين المجرّدة انهيارَ الاحلام التي أنفقوا من أجلها كلَّ ما يملكون. هكذا لا يعود من قبيل المصادفة المحضة أن تُخْلِفَ المواسمُ العربيةُ الكثيرةُ مواعيدَها، وان يكون موسمُ الهجرة إلى الموت هو الوحيدَ الذي يفي بوعده. وهكذا بات علينا أن نتجرّع خلال سنوات قليلة مرارةَ فقدان العشرات من الكتّاب والمبدعين، بدءًا من الجواهري ونزار قبّاني وعبد الوهّاب البيّاتي ونجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف ومحمد الماغوط ونازك الملائكة، وصولاً إلى ممدوح عدوان ومحمد شكري ومحمد القيسي ورجاء النقّاش وسهيل إدريس. ولأنّ كلّ واحد منهم قد أطبق عينيه في اللحظة التي تَسْبق انزلاقَ وطنه إلى الكارثة، فإنّ موته في هذه الحالة يصبح نوعًا من الموت بالتراضي، تمامًا كما هو الحالُ مع الصفقات السريعة التي لا تعترض طريقَها أيةُ عقبات.

بغياب سهيل إدريس، يكاد يكتمل عقدُ الخسارات الثقافية العربية. فنحن لسنا هنا إزاء مثقف من الطراز العادي، بل إزاء حالةٍ نادرة وشبهِ يتيمةٍ في صحراء العرب المترامية الأطراف. إذ ندر لمثقف عربي أن تعهَّدَ بيديه العاريتين أن يَدفع صخرةَ الهزيمة إلى الخلف، وأن يقسِّم جسمَه ـ كعروة بن الورد ـ إلى جسوم كثيرة كما فعل سهيل إدريس. فمِنْ قلبِ بيروت خرج ذلك الفتى النضرُ الوجه والقصيرُ القامة ليضيء في الظلمة العربية أطولَ الشموع وأكثرَها التصاقًا بالدمع. ووسطَ مجتمع بيروت المحافظ، خلع ذلك الفتى الشابُّ الخجولُ عمامتَه وجبّتَه ووصايا والده ليلتحقَ بالسوربون، وليتصلَ بأفكار الحداثة وفلسفات التنوير، ويعودَ إلى مدينته محمَّلاً بالوعود. كان باستطاعته بالطبع أن يجد، كأترابه البيروتيين، طريقًا أقصرَ إلى الثروة، كأن يشتغلَ بالتجارة أو المقاولات، أو يديرَ محلاً للحلوى. وكان باستطاعته أن يواصلَ تلاوةَ القرآن في المساجد، أو يواصلَ رفعَ الأذان على قمة مآذنها؛ ولكنّه آثر بدلاً من ذلك أن يرفع أذانَه الخاصّ فوق كلِّ بقعةٍ من بقاع العرب مناديًا بصوته الرخيم أنْ: حَيَّ على الثقافة، حَيَّ على التنوير!

هكذا وُلدت الآداب من احتكاك شرارتين: إحداهما انبثقتْ من الجنون الشخصي لسهيل إدريس، والأُخرى من الجنون القومي الجماعي الذي وَجد في جمال عبد الناصر ضالّتَه وقابلتَه وعنوانَه. وإذ لم يكن على امتداد الأفق العربي مجلةٌ ثقافيةٌ جامعةٌ تنتصر للحداثة وقيمها من دون أن تتعارضَ مع الالتزام ورغبةِ الأمة في التوحد، فقد انبرى الفتى العائدُ من فرنسا لتأسيس المجلة التي اتسعتْ صفحاتُها لكلّ صعاليك العرب وسارقي نار اللغة الجديدة: بدءًا من بدر شاكر السيّاب والبيّاتي والحيدري ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور

وعبد المعطي حجازي، وحتى الأرتال المتأخّرة من جيلَي الستينيات والسبعينيات. ولم يكن السجالُ المرير الذي دار أواخرَ الخمسينيات وأوائلَ الستينيات بين مجلتي الآداب و**شعر** ليفتَّ من عضد سهيل إدريس أو يقلّلَ من انحيازه إلى فكرة الالتزام التي نادى بها سارتر في الغرب، بل إنّه ذهب في خياراته حتى النهاية... تمامًا كما ذهب في خياراته الأخرى المتوجّسة من قصيدة النثر، والتي ترى فيها خروجًا على الحساسية العربية ودفعًا باللغة الشعرية نحو التسيّب والفوضى الكاملين. ومع ذلك فإنه لم يكن منغلقًا على ما يَرِدُه من ملاحظاتٍ وآراءٍ مخالفةٍ من قِبلي، كما من قِبل بعض الأصدقاء الذين طالبوه مرارًا بنقل السجال بين الخيارات والأساليب الشعرية إلى داخل الآداب نفسها، وفتح المجلة بالتالي أمام رياح المغامرة والتجدد التي تهبّ من كلّ صوب. وما نشرُه للعديد من قصائد النثر في الآداب، وللمجموعات النثرية في الدارِ المسمّاةِ باسمها، سوى الترجمةِ الفعليةِ لانفتاحه الذهني ولقبوله التدريجي بمتغيِّرات الثقافة والعصر.

ورغم فرادة المجلة وتنوّعها وجدّتها، فإنّ من الظلم أن لا نرى من سهيل إدريس سوى دور المحرِّض والمحرِّك والمنشّط الثقافي. ذلك أنّ دوره الريادي في تأسيس الرواية العربية ونهوضها لا يقلّ عن أدواره الأخرى. فروايته **الحيّ اللاتيني**، بتقنياتها الجديدة وطروحاتِها الإنسانية والحضارية وأسلوبِها الواقعي الرشيق، هي إحدى العلامات السردية الفارقة، ليس في زمنها وحسب، بل في الأزمنة اللاحقة لصدورها أيضًا. إنّ أسئلةَ الهوية والحبّ والمنفى والمكان وعلاقة الأنا بالآخر التي طرحتْها روايةُ إدريس هي نفسها الأسئلةُ الماثلةُ أمام جيلنا الحاضر والتي ستنتقل عدواها إلى الأجيال اللاحقة. وما يصحّ على **الحيّ اللاتيني** يصحّ على **الخندق الغميق** و**أصابعنا التي تحترق**، حيث نرى الصورةَ الأكثرَ تجسيدًا لروح بيروت الممزّقة بين الخيارات والمتناهية بين قيود الماضي ونداءات المستقبل. ومع ذلك، فإنّ الكثيرين يَعْرفون أنه كان بإمكان سهيل إدريس أن يذهب بعيدًا في عوالم الرواية والقصة لو لم يأخذْ على عاتقه مهمّاتِ النهوض بمجلته الرائدة، والوقوفِ إلى جانب عشرات المواهب والطاقات الإبداعية التي يحتاج تفتُّحُها إلى عنايته وجهده.

على أنّ المجلة وحدها لم تكن كلَّ شيء، بل كانت إلى جانبها مهماتٌ وأثقالٌ جسامٌ لا يَمْلك واحدٌ مثلي سوى التساؤل عن الطاقة الهائلة التي أُعطيتْ لهذا الرجل لكي يجد السبيلَ إلى تحقيقها. فإلى جانب المجلة، كانت دارُ الآداب تأخذ ما تبقّى من أعصاب الرجل العصامي وهمّتِه ووقتِه. وإلى جانب الدار، وجد سهيل إدريس الوقتَ اللازمَ لترجمة بعض أعمال جان بول سارتر وألبير كامو، فضلاً عن مساهمته الرئيسية في تأليف **المنهل** الذي كان وما يزال يُعتبر أحدَ أهمّ المعاجم الفرنسية ـ العربية. وإذ أَسهم إدريس في تأسيس «اتحاد الكتّاب اللبنانيين» في منتصف الستينيات من القرن الماضي، فقد خاض خلال فترة رئاسته له، وفي الفترات اللاحقة أيضًا، الحروبَ الشعواءَ والمعاركَ الضاريةَ للدفاع عن حرية الكتّاب واستقلاليتهم وحقّهم في التعبير بعيدًا عن الظلمِ والاعتقالِ والتكفيرِ ومصادرةِ الرأي.

كنتُ أرغب بالطبع في أن أتحدّث عن سهيل إدريس خارج هذا الإطار التوثيقي الذي وجدتُ نفسي مدفوعًا إلى كتابته، ليس من قبيل الوفاء والعرفان لشخصه ودوره في زمن العقوق والخيانات الصغيرة والكبيرة فحسب، بل ربما لأنجوَ أيضًا من التحديق المباشر في ذلك الوجه الصبوح والدائم الابتسام والمفعَم بالمودة والحنوّ. لكنّ الكلامَ عنه لا يستقيم من دون أن أعرِّجَ قليلاً على الإنسان فيه، وعلى الرجل الذي سعيتُ خائفًا ومرتبكًا إلى زيارتهَ عشيةَ الحرب الأهلية في مكتبه في العازارية لكي أحظى بفرصةٍ لنشرِ أُولى قصائدي على صفحات الآداب. لم يتركْ لي الكاتبُ الكبيرُ يومَها فرصةً للتلعثم أمام قامته وحضوره، بل سرعان ما بدّد بدماثته وتواضعه كلَّ ما انتابني من هواجس وتهيؤات، وأخذ بيدي سريعًا على طريق المغامرة الشعرية. لم أكن لأصدّق أنّ الرجل القصير الآخر الذي يقف إلى جانبه لدى زيارتي الأولى إلى مكتبه هو حنّا مينة، بشحمه ولحمه. ولا صدّقتُ في المرة الثانية، وكان مكتبُه قد انتقل إلى الخندق الغميق، أنّ الرجلَ المشوقَ القوام والبهيَّ الطلعةِ الذي يقف إلى جانبه هذه المرةَ هو نزار قبّاني. ومن دهشةٍ إلى دهشة، وبين ذهولٍ وذهول، أتاح لي سهيل إدريس فرصةَ التعرف إلى العشرات من الشعراء والكتّاب والمبدعين العرب. ورغم فارق السنّ الذي بيننا، وهو بعمر أبي تمامًا، فقد استطاع بتواضعه الجمّ ودماثةِ خلقه أن يزيل فجوةَ الزمن تلك، وأن يُثْبت أنّ الصداقة كالشعر تمامًا: شأنٌ لازمنيٌّ لا صلةَ له بالأعمار. ولعلّ تلك الصداقة وحدها هي الفخُّ الأجملُ الذي نصبه لي صاحبُ **ذكريات الأدب والحب** في سنوات عمري المبكّرة، بحيث وجدتُني بشكلٍ تلقائيّ أدفع إليه بمجموعاتي الشعرية الثلاث عشرة كلِّها: بدءًا من **عناوين سريعة لوطن مقتول**، وحتى **لا شيء من كلّ هذا**، و**صراخ الأشجار**.

لقد اجتمعتْ في سهيل إدريس خصالٌ وصفاتٌ متباينة نَدَرَ أن أَسلمتْ نفسَها لأحد. فإلى الجهد المضني والمثابرة البَتوليّة، لديه رغبةٌ لا تقاوَمُ في اختراع الحياة والتهامها. وإلى احترام الوقت والتنسّك المعرفي، لديه أنفٌ شهوانيٌّ لا يخطئ الهدفَ، وعينان جاحظتان أبدًا نحو أبعد ما في النساء من أسرارٍ ولججٍ مطويّةٍ على غموضها. وإلى عصبيةٍ وانفعالٍ لا يَمْلك دفعًا لهما في لحظات الخيانة والغدر والجحود، كان يَمْلك بديهةً أخفَّ من أيدي النشّالين، وكان يرتجل النكات كما يرتجل السَّحَرَةُ الحمائمَ من تحت قبّعاتهم. يكفي أن أَذْكر في هذا السياق طرفةً واحدةً من عشرات الطُّرَف التي تَعْكس بديهتَه السريعةَ وذكاءه اللمّاح. ففي دورةٍ من دورات معرض الكتاب العربي في الثمانينيات، كان الشاعر الراحل نزار قبّاني قد عهد بمؤلَّفاته ومنشوراته إلى «دار الآداب» لكي تقوم بتوزيعها بعد أن اضطُرَّ إلى مغادرة لبنان إثر مقتل زوجته بلقيس وتفاقُم الوضع الأمني في بيروت. كنتُ يومَها قد أصدرتُ مجموعاتٍ شعريةً ثلاثًا، كما أذكر. واذ لفتني أنّ كتبَ نزار قبّاني تلاقي رواجًا لا مثيلَ له وتَشْهد إقبالاً كثيفًا من قِبل الجمهور، فقد خطر لي أن أضع نسخًا من مجموعاتي الشعرية وسط كُتُبِ نزار قبّاني. وحينما سألني سهيل إدريس عن الغرض من فعلتي تلك قلتُ له: «ربما تباع كتبي في هذه الحالة بفعل العدوى، أو لأنّ أنظار القرّاء تلتفت إليها في هذه الحالة.» لم يُظْهر الدكتور سهيل حماسةً لما أفعله، ولكنّه لم يُرِدْ أن يحبطَني، بل اكتفى

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

بابتسامةٍ ذكيةٍ وذاتِ مغزى. حتى إذا عدتُ بعد يومين من هذه الحادثة إلى جناح دار الآداب في المعرض، بادرتُ صاحبَ الدار بالسؤال: «كيف حالُ المبيعات يا دكتور؟» فأجاب سهيل إدريس ضاحكًا: «المفاجأة ليست في كون مجموعاتك الشعرية لا تباع منذ يومين، بل في كون كُتب نزار قبّاني نفسه لم تعد تباع أيضًا!»

لعشر سنوات خَلَتْ لم أكن أرى في سهيل إدريس ما يشير إلى قنوطٍ أو انكسارٍ أو استسلامٍ أمام المرض، رغم اندحار حلمه القومي وانكفائه أمام عشرات الحروب العربية الخاسرة. وحده رحيلُ نزار قبّاني هو الذي كسره من الداخل وطَحَنَ روحَه إلى أبعد الحدود، كما أسرّ لي ذاتَ لقاء. واذ تضافَرَ عليه مرضا الضغط والسكّري وأتلفا كليتيْه، اللتين كان يضطرّ الى إجراء «غسيل» لهما ثلاثَ مرات في الأسبوع، فقد قرّر سهيل إدريس أن يختفي عن الأعين لكي لا تتهشّم أمامنا صورةُ الشخص النضر والمعافى والطافح بالحياة الذي عرفناه من قبل. ثم ما لبث أن أغمض عينيه بهدوء، ساحبًا حياتَه من عهدة المختبرات والهزائم والأنابيب وحُقَنِ الدم ونُذُرِ الحرب التي تَعْصف بوطنه، باتجاه الأحلام البيضاء التي لن يشاركه فيه رؤيتها أحد.

صديقي وأبي وأخي سهيل إدريس،

أتيتُ أمس إلى منزلك ولم أجدك.

قيل لي إنكَ تعتذر عن عدم استقبالكَ لي بداعي الموت، فلم أقتنعْ.

قلتُ قد يكون هناك خطأٌ في مكانٍ ما.

قلتُ لربما هو تشابهٌ في الأسماء.

إذ لا سببَ مقْنِعًا لوجودكَ مع الموت في مكان واحد!

جريدة السفير، ٢٩ شباط ٢٠٠٨

صديقي إلى الأبد

الياس خوري

كنتُ في الرابعة والعشرين. حملتُ روايتي الأولى وذهبتُ الى مبنًى قديم في العازارية. كان المصعدُ لا يعمل، أو لم أستطع انتظارَ بطئه، أو لم يكن هناك مصعد. لم أعد أذكر. لكني صعدتُ الدرجَ الحجريَّ القديم، ووجدتُ نفسي أقف لاهثًا أمام الرجل الجالس خلف مكتبه الكبير. كاد وجهُه يختفي خلف كوم الاوراق التي تغطّي كلَّ زوايا المكتب، ولم أدرِ ما أقول. أعطيتُه المخطوطَ. قال إنه سيقرأه، ومضيتُ.

لم ينحفرْ في ذاكرتي سوى وجه الرجل المستدير وشاربيْه الرفيعيْن، واكتشفتُ أنه لم يكن يُظهر عينيه خلف نظّارتيْه مثل جان بول سارتر. عدتُ إلى بيتي وانتظرتُ. كنتُ متيقّنًا من أنه لن يتصل، ولن يضيِّعَ وقتَه في قراءة كتابي الأول. لكني فوجئتُ به يبلّغني بعد أيام أنّه سيَنْشر روايتي رغم أنه لا يحبّها. قال شيئًا عن تجريبيتها، وأشار إلى رهانه على المستقبل. قال إنه سينشر الروايةَ لأنّه يعتقد أني سأصير كاتبًا.

ومنذ تلك اللحظة صار سهيل إدريس صديقي وقارئي الأول.

كان قوميّاً عربيّاً، عندما كان جيلي يكتشف الماركسيةَ بعد الهزيمة الحزيرانية. لكننا بقينا صديقيْن. شيء من السِّحر واللطف والدماثة والنبل. لم يكتفِ الرجل بترجمة سارتر إلى العربية، بل عمّده قوميّاً عربيّاً؛ كأنّ الوجودية صارت سلاحَ الالتزام القومي في مواجهة الالتزام الماركسي.

رجلٌ واحدٌ حَمَلَ على منكبيْه أعباءَ أجيال النهضة العربية الثانية. في مواجهة سلطة يوسف الخال الأدبية، بنى سهيل إدريس سلطةً أخرى. ولم تكن مجلةُ الآداب منبرًا للنقد الحديث والرواية والقصة فقط، بل كانت أيضًا منبرًا شعريّاً بامتياز. على صفحاتها نَشَرَ السيّاب قصيدةَ «أنشودة المطر» (١٩٥٤)، التي كانت البدايةَ الفعليةَ للشعر الحديث. وكان نزار قبّاني حاضرًا كلَّ الوقت، وإلى جانبه أحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور وخليل حاوي وسواهم. فالمعركة التي خاضها إدريس كانت سياسيةً وفكريةً، إذ بنى وجوديتَه وحداثتَه على فكرة العروبة، وانتمى من دون تعصّب إلى الناصرية باعتبارها التعبيرَ السياسي الأرقى عن الفكرة العربية.

لكنّ صديقي سهيل إدريس لم يكن ناشرًا وصاحبَ مجلةٍ كبرى فقط، بل كان كاتبًا كبيرًا وحكايةً إنسانيةً تستحقّ أن تُروى. الشيخُ الصغيرُ المعمَّم في رواية **الخندق الغميق** خَلَع الجبّةَ والعمّةَ وتمرّد على القيم السائدة. سامي، بطلُ «ثلاثية» سهيل إدريس، هو الوجهُ الآخرُ للرجل. سامي كان اسمَه الآخر في «ثلاثيته» التي تُشْبه السيرةَ الذاتيةَ من دون أن تكونَها. الكاتب يمشي على خطى أبطاله، لأنّ الوجودَ يسبق الماهية،

مع عايدة: أيام الحب الأولى

كما علّمنا سارتر. والشابُّ الذاهبُ للدراسة في باريس يرتطم بالثقافة الغربية لا ليرفضها، بل ليجد صوتَه وثقافتَه في داخل العلاقة معها. بطلُ **الحيّ اللاتيني** يتابع حكايةَ الطالب العربي في علاقة الشرق بالغرب من ضمن استعارة الأنوثة والذكورة التي افتتحها فلوبير في رسائله المصرية. عودةُ البطل إلى بلاده هي استعارتُه لمعنى الالتزام، التي سوف تكتمل في حكاية الدار والمجلة في رواية **أصابعنا التي تحترق**.

ابنُ بيروت القديمة التي بنى أدارسةُ المغرب أحدَ أبوابها، ليأتي حفيدُهم اللبناني ويبني لها بابًا مصنوعًا من ثلاثة أبواب، هي دارُ «الآداب» ومجلةُ الآداب وثلاثيةٌ روائيةٌ جعلتْه واحدًا من صانعي الرواية العربية الحديثة...

القوميُّ العربيُّ الذي لم يتراجعْ في زمن التراجع، ولم يستسلمْ في زمن الهوان، كان يَنْظر بمرارة إلى الواقع العربي المتردّي منذ رحيل عبد الناصر وتهافُتِ البدائل. لكنّه كان يملك حسّاً تاريخيّاً جعله يرى في الهزيمة مرحلةً، لأنّ بديلَ العروبة هو الطائفياتُ والموت.

الوجوديُّ الذي جمع التحررَ الأدبي إلى بعض علامات المحافظة الاجتماعية؛ الكاتبُ الذي جرؤ في الجزء الأول من **مذكّراته** على قول ما لا يقال، حين تحدّث عن علاقات والده المثلية؛ ورئيسُ التحرير الذي فَتَحَ أبوابَه مشرعةً لكلِّ نقدٍ من دون أن يتخلّى عن التزامه القومي والفكري؛ استطاع أن يؤسّس صرحًا ثقافيّاً صار المؤسسةَ الحداثيةَ المستمرةَ بامتياز.

لكنّ سهيل إدريس كان أبًا مختلفًا. المتمرّدُ على الآباء جَعَلَ من أبوّته لأجيالٍ من الأدباء والشعراء العرب بابًا مفتوحًا على التغيير. كان يرعى التمرّد، ويَفْرح به، ويحاور الجديدَ المختلف، كأنه يصنعه من خلال الآخرين. كأنّ سامي تشظّى في كتابات الآخرين، وصار نقيضَ نفسه، من دون أن يتخلّى عن هويته.

كان سهيل إدريس حكايةً تضمّ مئاتِ الحكايات، ورؤيةً لخّصتْ رؤى زمنه، وموقفًا ملتزمًا لم ينسَ أنّ الحرية هي قضيةُ الثقافة العربية الأولى.

كان أمينَنا العامَّ، رغم أنّ اتحادَ الكتّاب الذي أسّسه مع رفاقه تلاشى في الأعوام الأخيرة، وصار مجردَ شبحٍ لاتحادٍ أدبيّ سبق أن حَمل مشعلَ الدفاع عن الحرية في لبنان والعالم العربي.

وعندما أتى المرضُ، لم أعد ألتقي بصديقي إلاّ نادرًا. لكنه بقي كما كان: الدماثة غلّفها الحزنُ، والفرحُ بالحياة تلاشى، لكنّ ظلالَ عينيه بقيتْ تحمل مزيجَ التحدّي والسخرية من أحوال هذا الزمن الذي انقلب بنا.

عندما مات سهيل إدريس منطفئًا بالمعاناة التي تسبّب بها مرضُه الطويل، أحسستُ من حولي بما يُشْبه الفراغَ. كأنّ هذا الرجلَ احتلّ مكانًا سريّاً في حياتنا، وظلّ محاورًا لنا حتى حين صار عاجزًا أو مستنكِفًا عن الكلام.

إنّه سحرُ الحياة وجمالُها حتى في لحظة الفراق. فالرجلُ لن يفارقَنا إلا مجازيّاً، لأنّ الموت ليس موتًا إلاّ في وصفه المجازَ الأخيرَ الذي تقدّمه لنا الحياةُ.

يومَ الثلاثاء ١٩ شباط ٢٠٠٨، فَقَدْنا رجلاً يُشْبه مؤسسةً، وكاتبًا كبيرًا، وصديقًا، وأخًا، وأبًا، وحبيبًا.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

بين هذا اليوم، ويوم لقائي الأول به منذ أعوام لا تُحصى، مرّت الحياةُ كمنام قصير، لم يتركْ لنا وراءه سوى رواياتٍ كتبناها، وروايات لم نكتبها. حَفَرْنا على هشاشة الحياة بعضًا من هشاشتنا، لكننا تعلّمنا أنّ الآخر الذي علّمنا صار جزءًا منا. ولذا حين يموت، نشعر أنّ بعضًا منا يتلاشى ويمضي.

هناك، في الدار التي كانت في مبنًى قديم في وسط بيروت، التقيتُ برجلٍ لا يُشْبه جان بول سارتر، لكني عندما عدتُ إلى البيت رويتُ لأمّي أني التقيتُ بجان بول سارتر في بيروت!

ومنذ تلك اللحظة تعلّمتُ أنّ الكتابة موقف، وأنّ الكاتب الذي جعل من حياته موقفًا يُدعى سهيل ادريس، وأنه صار صديقي إلى الأبد.

ملحق النهار، ٢٠٠٨/٢/٢٤

اعتذار من بيروت ومن سهيل إدريس ——— طلال سلمان

يتوجّب علينا الاعتذارُ من أستاذ الجيليْن سهيل إدريس، بدايةً؛ ثم من بيروت، أميرةِ الحزن العربي، لأننا لم نستطع أن نوفّر له فيها ومعها الوداعَ اللائقَ بدوره الريادي في تجديد الثقافة العربية، انطلاقًا منها وبها نحو الوطن العربي الكبير، بمشرقه ومغربه جميعًا.

العذر العلني الذي لا يحتاج إيضاحًا أننا كنا بصدد تشييع المبادرة العربية لحلّ الأزمة السياسية المتفجّرة في لبنان، وذلك عبر مهرجانات الاشتباك بالرصاص والقنابل الحارقة في بعض أحياء بيروت بين جماعة «النصف زائدًا واحدًا» وجماعة «المثالثة» و«الثلث الضامن»! وهكذا فقد شَغَلَنا تهاوي الجمهورية بمؤسّساتها جميعًا عن سائر الشؤون والشجون، وخصوصًا أنّ الضربة القاضية لهذه الدولة الصغيرة، بحجم الكون وعواصمِه جميعًا، قد جاءت من أهلها العرب، وإنْ تلطّى خلفَهم الأعداءُ الطبيعيون: من الهيمنة الأميركية إلى الاحتلال الإسرائيلي.

هل كان ضروريّاً أن ينطوي سهيل إدريس داخل قوقعة صمته الأبديّ حتى نكتشفَ كم أنّ بيروت التي شيّعتْه بحزنٍ أخرسَ هي غيرُ بيروت النوّارة التي أعطت هذا الفتى الذي غادرها أزهريّاً وعاد إليها من باريس جان بول سارتر ودعواه الوجوديّة داعيةً قوميّاً ومحرِّضًا بثقافة الإنسان ضدّ أنماط الاحتلال الأجنبي والاستعباد أو الاستتباع الداخلي جميعًا؟!

لقد وفّر رحيلُ سهيل إدريس فرصةً جديدةً لأن نكتشف ـ بعيدًا عن السياسة، بل بسببها، وتحديدًا بسبب انحدارها وغرقها في مستنقع الطائفيات والمذهبيات ـ كم انطفأ من أنوار بيروت ومن إشعاعاتها التي أضاءت العديدَ من الجنبات المعتمة في هذا الوطن العربي الكبير الذي يكاد لا يتبيّن طريقَه إلى هويته ودوره، فكيف بغده؟! بل إنّ رحيل سهيل إدريس قد كَشَفَ لنا كم زادت المساحاتُ المعتمةُ ـ عربيّاً ـ عنها يومَ إقدامه على مغامرة إصدار الآداب قبل خمسةٍ وخمسين عامًا.

فهذه المدينة النوّارة «التي احترقتْ ولم ترفع الأعلامَ البيضاءَ» للاجتياح الإسرائيلي في العام ١٩٨٢، والتي أُطلقتْ منها وفيها الرصاصاتُ الأولى للمقاومة، يُراد لها اليوم أن تَرى في المقاومة المنتصرة على إسرائيل، تكرارًا في العام ٢٠٠٠ ثم في الحرب الإسرائيلية صيفَ العام ٢٠٠٦، اجتياحًا لها من داخلها... وكأنّ مجاهديها أغرابٌ دخلاءُ على هذا الوطن الذي يُمْكنه الاعتزازُ بانتصاره العظيم.

لقد تزايدتْ أعدادُ المجلّات والنشرات والمطبوعات الدورية المكتوبة بماء الذهب، تدليلاً على تعاظم الاهتمام السامي «بنشر الوعي» و«إحياء الثقافة أو تجديدها.» لكنّ هذه الدوريات، الأسبوعية والشهرية والفصلية، تبدو أحيانًا وكأنها آتيةٌ من قبل العصر، وفي أحيانٍ أخرى من بعد العصر... وغالبًا ما تكون بلا قضية، اللهمَّ إلا إذا كان الهدفُ منها التدليلَ على اهتمام السلطان بالثقافة والمثقفين بوصفه «المثقف» الأول. أما الآداب فكانت مجلةَ القضية!

لقد كان هدفُ منشئِها من إطلاقها، وبامتياز سياسي وليس ثقافيّاً أو أدبيّاً بالمعنى القانوني، أن تكون منبرًا للدعوة إلى حركة تغييرٍ عربيّ شامل، بتحطيم الأوهام والأصنام ودواعي العجز والاستسلام لترسّبات عصور القهر الاستعماري وانعدامِ الثقة بالذات في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي ومَنْ يسلّحه ويدعمه ويناصره فيَنْصره على هذه الأمة.

ولقد خاضت الآداب معاركَ ثقافيةً ذاتَ أبعاد سياسية معلنة، ضدّ اتجاهات وتوجّهات كانت تُعتبر في حينها معادِلةً للخيانة والارتباط بالأجنبي. خاضت معركةَ الهوية القومية التي كانت مطمحًا بل مطلبًا عزيزَ المنال على الممنوع من ممارسة عروبته... أما اليوم فقد صارت العروبةُ تهمةً، ولعلّها سوف تصير، في مستقبلٍ قريب، جنايةً يقدَّم مرتكِبُها إلى المحكمة بتهمة تحقير المكوِّنات العرقية أو العنصرية أو الطائفية والمذهبية للهاربين من عروبتهم أو المتنكّرين لها.

وخاضت معركةَ المقاومة... وها هي المقاومةُ اليومَ تُعتبر محاولةً لإسقاط النظام الطائفي.. بالمذهبية!

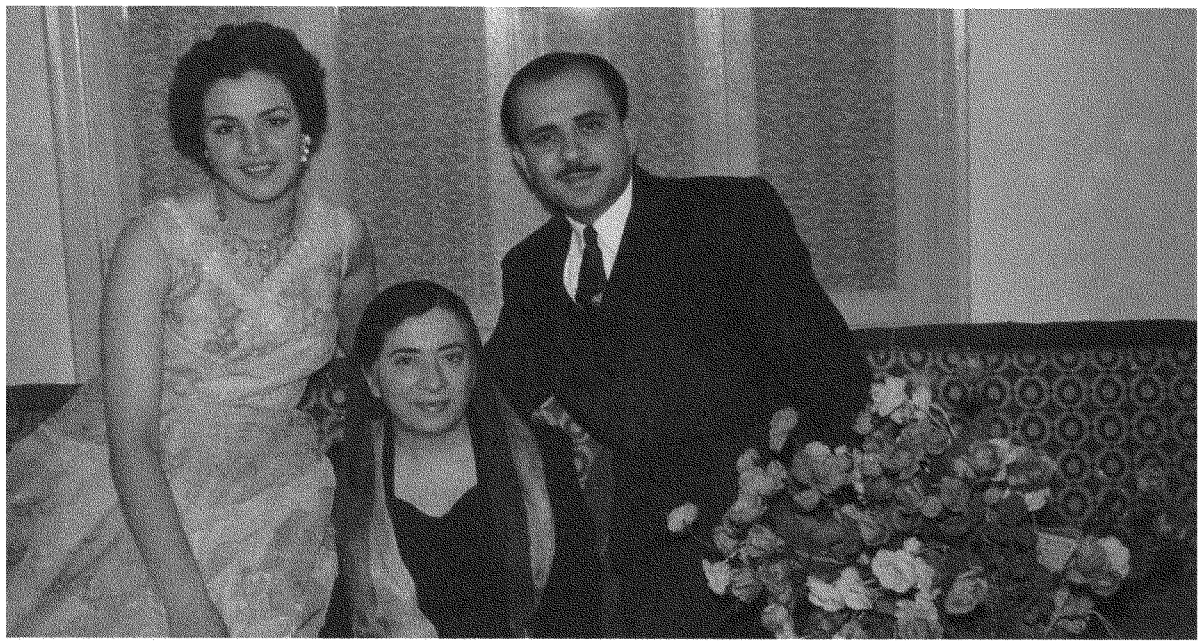

العريس والعروس، حول أمّ العريس

بل إنّ أولئك الذين غادروا هوياتِهم وملامحَ وجوههم ووجدانهم إلى غربة ثقافة «العالم الجديد،» حيث لا قومية ولا وطنية ولا موروثات دينية تشدّ إلى التخلّف وتغري به، قد يستطيعون اليومَ أن يحاسِبوا سهيل إدريس والآداب وأن يوجّهوا إليه وإليها اتهاماتٍ أقسى وأشدَّ، بينها: التخلُّف، الأصوليةُ، الغربةُ عن العصر.. وصولاً إلى التوجّه الإرهابي! وبين الأدلّة: احتضانُها المقاومةَ والدفاعُ عنها!

لقد جمعت الآداب أطرافَ الوطن العربي الكبير من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق. وكان المبدعون، كتّابًا وروائيين وقصّاصين وشعراءَ وبحّاثة، يتلاقوْن فيتعارفون، وقد يتنافسون ويتزاحمون على صفحاتها، من أجل توطيد التعارف فالتواصل والتلاقي تمهيدًا للتوحّد في الموقف من خلف طموحاتهم ـ أهدافهم المشتركةِ العزيزةِ المنال.

والآداب، التي صَدرتْ في بيروت ومنها قبل خمسةٍ وخمسين عامًا، كانت متقدِّمةً جدّاً عن واقعنا الحالي؛ إذ لم تكن بيروتُ عاصمةً للاقتتال بين الطوائف والمذاهب، بل كانت عاصمةً للتنوير، عربيّاً، فيها الطوائفُ جميعًا ولا طائفية مستنفرة تستدعي الطائفية، يتلاقى فيها العربُ من داخل هوياتهم الوطنية بأفق الطموح إلى التلاقي في أفياء العروبة الموحّدة... أما اليوم فالساحاتُ مفتوحةٌ لاقتتال بين الهوية الوطنية والطائفية، وبين القومية والمذاهب، وكلُّ ذلك يصبّ في مصلحة «العدوّ الإسرائيلي» ومشروعِ الهيمنة الأميركية.

لكنّ «العدو» لم يعد عدوّاً تمامًا... وها هو يكاد يتحوّل إلى «جار.» ولأنّه الأقوى، فلا بدّ من مداراته، ومجاراته، والانتقالِ من مهادنته إلى مسالمته، وطيِّ صفحةِ الصراع، بذريعةِ أنّنا «نريد أن نعيش»... «فلتذهبِ المقاومةُ إلى مَنْ يحتاجها، أما نحن فقد اكتفينا.. خلص»!

...

مع غياب سهيل إدريس، أستأذن أن أروي واقعة تستعصي على النسيان:

في صيف ١٩٦٠ نظّمتْ مجلةُ **الأحد**، وكنتُ مديرًا للتحرير فيها، مسابقةً في القصة القصيرة، وكان سهيل إدريس رئيسًا للجنة التحكيم فيها. وبناءً على اقتراح منه، دعونا الكاتبَ الجزائري مالك حدّاد ضيفَ شرف. وبعدما أُعلن أسماءُ الفائزين (غادة السمان، زكريّا تامر، وياسين رفاعية)، وجّه الدكتور سهيل إدريس تحيةً إلى ضيفنا الكبير، وكانت ثورةُ المليون شهيد في جزائره الحبيبة تكاد تنجز انتصارَها التاريخي، ثم أعطاه الكلمة.

وقف مالك حداد ليلقي كلمةَ ردّ التحية، وإذا به يَصْمت طويلاً ثم يَشْهق باكيًا... قبل أن يغمغم معتذرًا عن عدم معرفته باللغة العربية، وصعوبةِ أن «يهدر» باللهجة الجزائرية التي لن نفهمَها. وكان ذلك المشهد شاهدًا حيّاً على ما يتهدّدنا جميعًا إنْ لم نقاتلْ لحماية وجودنا وهويتنا بوحدة الموقف ووحدة الهدف.

ها نحن «نَهْدر» جميعًا بلغةٍ واحدة، يا دكتور سهيل، ولكننا ـ من أسفٍ ـ لا نريد أن نَفهم معانيَها ودلالاتها ومصدرَها، ربما لأننا «نستخدمها» وقد جرّدناها من الوجدان.

... ولن ننسى أن نحتفلَ معك بعيدِ الوحدة [المصرية ـ السورية] غدًا، مع أنّها صارت مجردَ ذكرى عزيزةٍ على القلب، وخارج القدرة.

جريدة السفير، ٢٠٠٨/٢/٢١

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

سهيل إدريس لم يُخلِفْ مع الحرية موعداً

محمد بنّيس

في حالةٍ من الخشوع تلقّيتُ رحيلَ الدكتور سهيل إدريس. إنه، بلا ريب، أحدُ الفاعلين الثقافيين العرب الكبار بين الخمسينيات والستينيات. وهو، أيضًا، الصديقُ الكبير، المعلّمُ والقدوة. ما أثاره رحيلُه من رجّةٍ في نفسي، وفي نفوس مثقفين عرب عديدين، صادرٌ عن قوة حضوره في مسار الثقافة العربية الحديثة. كتاباتُه الروائية ومقالاتُه وأفعالُه الثقافية ومواقفُه السياسية تأتلف كلُّها في كلمة واحدة هي: الحرية. ذلك ما وَشَمَ مرحلةً بأكملها: جرأةٌ ونبلٌ. والذين عاشوا القليلَ أو الكثيرَ من تلك المرحلة يدركون جيّدًا ما كان للدكتور سهيل إدريس من حياةٍ ثقافيةٍ بها أعطى لزمنه العربي حياةً جديدةً.

قوةُ الحضور هي ما أستحضرُه في هذه اللحظة المكثّفة من المشاعر. حضورٌ لازمني منذ مراهقتي، ولم يتوقّف عن تأكيدِ فاعليته عبر جرأةٍ ونبلٍ. مجلةُ الآداب كانت اللغةَ المشتركةَ بين شبّان المرحلة، ومنشوراتُ دار الآداب تحوّلتْ في لمح البصر إلى مكتبةٍ لجميع التوّاقين إلى تغيير الأفكار والحساسيّات. أتذكّر ذلك جيدًا: ما زلتُ أحتفظ بأعدادٍ قديمةٍ من المجلة؛ كما أنّ إصدارات الدار، في الشعر والرواية والدراسات والترجمات، أظلّ حريصًا عليها في مكتبتي. وأتذكّر الطريقةَ التي كان جيلُ ما بعد الاستقلال في المغرب يستقبل بها المجلةَ وإصداراتِها. إنه استقبالُ الفرح بالكلمة الحرة، وبالعبارةِ المبحوثِ عنها. لكنّ الكلمة أصبحتْ، بالنسبة إلى جميع المثقفين العرب النازعين إلى فكّ القيود، ملخَّصةً في واحدة هي «الالتزام.» وسهيل إدريس هو الاسمُ الثقافيُّ الذي جعل من هذه الكلمة دليلاً على الانفتاح على الفلسفة الوجودية بعد أن كان، في الخمسينيات، أيقظ حساسيةَ الشبّان على الشعر المعاصر. وقوميتُه كانت ذاتَ صبغةٍ إيمانية، مقابلَ عقائد وتيارات من اليمين واليسار. وكانت الصبغةُ الإيمانية هي الدليلَ على الرسوخ قبل أن تفيد العبوديةَ. فالحرية هي التي دَعَتْه إلى اعتناق القومية والدفاع عنها، كتابةً وموقفًا؛ وهي التي قادته في التسعينيات إلى الاعتذار للشيوعيين عن خطإ موقفه منهم.

تنوعتْ كتاباتُ الدكتور سهيل إدريس بين السرد والمقالة. وتظلّ روايةُ **الحيّ اللاتيني** علامةً على وعيٍ إنساني وحضاري في آن. الفرد، وتعلُّمُه من الغرب، صيغةٌ جديدةٌ لنقد القيم الأخلاقية والدينية. إنها الرواية التي قَرّبتْ من جيلي حياةً فرنسيةً لما بعد الحرب العالمية الثانية. لكنها قرّبتْه أيضًا من ثقافة الجرأة على الحرية، التي عاد بها سهيل إدريس من باريس، ليغذّي بها ثقافةً عربيةً، وليعلّم بها جيلاً من الشبّان كيف يبحثون عن طرائق جديدة في الحياة والتعبير عنها. إنه نموذج قد يبدو، اليوم، غريبًا. كانت ثقافتُه التقليدية في بيروت سبيلَه إلى الانفتاح على الغرب وثقافتِه وقيمِه النقدية؛ كأنما كان طه حسين نموذجَه الأعلى، وهو يخرج من الأزهر ليأخذَ من الثقافة الفرنسية شعلتَها ويهديها إلى الثقافة العربية.

وهو المثقف الصديق. فرحتُ بهذا في حياتي. فرحتُ به حقًّا. وأنا أستعيد بالعرفان ما كان لي مع الدكتور سهيل إدريس منذ السبعينيات، بين المغرب ولبنان، أو في لقاءاتٍ ومؤتمرات بين المغرب وبلادٍ عربية. لا أنسى شيئًا من فسحة الصداقة التي كانت لنا. صداقةٌ ترقرقتْ في المدارج والفضاءات. صداقةُ الإنسان الذي أحببتُ وشعرتُ بالاطمئنان إليه. تعاطَفَ معي وأنا شابّ. تضامَنَ في أوقات المنع والوحدة. ودائمًا كان الإنسانَ الذي لا يُخْلف الوعدَ. بابُ بيتي انفتح عليه، وعلى الغالبية عايدة، مثلما بيتُه انفتح لي في بيروت. وكنتُ القريبَ من الأبناء: رائدة ورنا وسماح. كلُّ واحدٍ منهم بمثابة أخ من إخوتي. ابتسامةُ سهيل لا تفارقني. نكتتُه التي يبدع فيها. أداؤه اللذيذ لأغاني محمد عبد الوهّاب. وفي كلّ مرة كان يهتزّ طربًا كلّما عاد باسمه إلى فاس، ومولاي إدريس. كذلك كان يقول لي وهو يعيد كتابةَ تاريخ أجداده. من فاس هاجروا إلى بيروت. فاس التي كان يحبّ اسمَها ويحبّ رائحتَها. هي الذاكرة المتوارية التي لا تغيب. هي الأقحوانُ والنارنجُ والياسمينُ والرمّان. هي البيوتُ والمساجدُ والألبسةُ والكتبُ والموسيقى. هي الأقواسُ المشبعةُ بالأضواء والظلال.

هكذا أراكَ الآن أيها الصديق الكبير. كنتَ جريئًا ونبيلاً. صورتُكَ الأولى هي التي ترافقني. وأتأمّل تلك اللحظة ونحن في مؤتمر اتحاد الكتّاب العرب في الجزائر سنةَ ١٩٨٤. على إثر منع مجلة **الثقافة الجديدة**، بادرتَ بالدعوة إلى تكوين لجنةٍ من الكتّاب العرب للتوجّه فورًا من الجزائر إلى الرباط للّقاء بالسلطات المغربية قصدَ الاحتجاج على منع المجلة والمطالبة بالتراجع عن القرار. دعوةٌ كنتَ تعبّر من خلالها عن مواقفكَ التي عرفناكَ بها، دفاعًا عن الحرية، في عالمٍ عربيّ لم تكن تفرّق فيه بين مغربٍ ومشرق. إنّه صدقُكَ في الفعل الثقافي، ورغبتُكَ في تغيير رؤًى وعقليات وأوضاع وسلوكيات.

وفي زيارتي ما قبل الأخيرة لبيروت حضرتَ لقائي الشعريَّ في المعرض، بمناسبة صدور أعمالي الشعرية. تفضّلتَ، كالعادة، بدعوتي إلى بيتك. وفيه التقيتُ العائلة في حفلٍ كرّمتَني به. كلمتُكَ كانت هي كلماتك. وعايدة فرحةٌ بالأحفاد، وبالجميل الذي عشناه.

بحدس الرائي سلّمتَ للأبناء مسؤوليةَ مجلة الآداب ودار الآداب. كنتَ سعيدًا وأنت تُخْبرني بما أقدمتَ عليه، ثقةً بضرورة استمرار أداء دور الدفاع عن التحديث والحرية. وهُم اليومَ يتابعون ما بدأتَ، جنبًا إلى جنب مع عايدة.

صوتُكَ. كتاباتُكَ. وابتسامتُكَ التي تحمينا من البرد. بوركتَ أيها النبيل.

جريدة الأخبار، ٢٠٠٨/٢/٢٦

مع عايدة أيضًا... وأخته عائشة

خواطرُ عَرَضَتْ

الطاهر لبيب

قيل وسيقال إنَّه أديبٌ فَتَحَ مساربَ «الحيّ اللاتيني» للرواية أو فيها؛ وإنّه ـ مع أو على خطى عصافيرَ من الشرق أخرى ـ واجه التباسَ العلاقة بين عروبة الشرق وغربيّةِ الغرب؛ وإنَّه واصلَ نصَّه الأدبي إلى تخوم الإحباط العربي: هذا العربي الذي دفعه الأملُ فيه إلى عروبةٍ كانت ذاكرها، عنده، في غدها، وكان جدّ في «وجوديّة» فتح النوافذ لها.

قيل وسيقال عنه إنّه لم يكن فردًا وكان مشروعًا: مشروعًا لجَأتْ إليه، ومرّت به، أقلامٌ عربيةٌ لا تُعَدُّ. بعضُها طال، في ما بعدُ، كما طال الألفُ في أبيات المتنبي؛ وبعضُها كما ترتفع أسنّةُ الرماح. اليومَ، الكثيرُ منهم، معه ـ وقد غادَرَ ـ قصّةُ اعترافٍ لا مناصَ من اختلافِ السّردِ فيها: هو عند البعض في ضمير «الغائب،» وعند البعض في ضمير «متكلّم،» واللبْسُ كلُّه في التقاطع.

لم أكن قارئًا جيّدًا له. قرأتُ **الحيّ اللاتيني** في الحيّ اللاتيني، على هامش قراءاتٍ لا تزال مغلّقةً أمام حسّ الشرق. كان هذا كافيًا لسوء قراءاته. وعندما قرأتُ أولَ مقطع ـ ويسمّى جزءًا ـ من [**ذكريات**] «أدبه وحبّه» لم يكن لي منه إلاّ ما ارتدّتْ إليه ذكرياتُه. ومع ذلك اكتشفتُ أنَّه من ذاك النوع المركّبِ الذي يحتاج منكَ إنتاجُه إلى الترابط في ذهنك، جهدًا ونصّاً وزمنًا. لا بدّ أن يُقرأَ أو أن تعادَ قراءتُه من وجهة نظر هذا الترابط: فأنْ يُفْصَلَ جهدُ الفكر عن فكر الجهد، كأن يُفْصَلَ المبدعُ عن الناشر، فهذا حيفٌ في حقّ الجهدِ والفكرِ معًا. أن يُفصل إبداعُ الرواية عن افتتاحيات الآداب ومواقفِها، أو عمّا كتب في قضايا الأمة واللغة، فهذا من تقاليد المقاربات التي لا تَقْترب من شخصيةٍ مركّبةٍ مثلِ شخصيّته.

عرفتُه متحدِّثًا. جمعتْنا لقاءاتٌ فكريةٌ كان أغلبُ الهمّ فيها عربيّاً. شدّني إليه هذا الجَمْعُ بين وضوح الفكرة، عند مهمومٍ، وبين دقّة العبارة وجمالِها. شدّتني صرامةُ هذا الجمع، في وقتٍ تسَيَّبَ فيه الهمُّ وارتخى حسُّ العبارة.

الذاكرة العربية تقصرُ أكثر فأكثر. وإذا كان مطلوبًا تيسيرُ الأمرِ عليها، فلتَحْتفظْ في حدودها الدنيا، بملامح نمطٍ ينقرض من المفكّرين والمبدعين: نمطٍ له القدرةُ على المؤالفة بين اعتناق قضيةٍ عربيةٍ، وبين أن يبقى فيها الفكرُ وإمضاءُ التفاؤلُ حيّاً والعبارةُ مستقيمةً... وكلُّ هذا بإنسانيةٍ دافئةٍ وساخرةٍ في آن واحد.

أَستحضر لقطةً من دفء سهيل إدريس ومن سخريته اللذيذة. طلبَ منّي، في مناسبات عدة، أن أمدَّه بنصوصٍ لي يَنْشرها. كنتُ أعتذر، دائمًا، بكسلي في الرجوع إلى ما كُتب وأَهملتُ. فاجأني، يومًا، بأن صرَفَ لي صكّاً بألف دولار. كان هذا قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا. قال لي: «هذا يُلزمك أخلاقيّاً، وإنْ كنتُ أشكُّ في أنّ لك أخلاقًا»! في كلّ مرة رأيتُه فيها يسألني عن نصوصي، وأتوسّلُ إليه في استرجاعِ ماله. في كلّ مرةٍ، يكون رفضُه قاطعًا. غاب، رحمةُ اللّه عليه، فلا أنا قدّمتُ له نصوصي ولا هو استرجَعَ مالَه!

أُرسلتْ إلى الآداب

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

قامةٌ عاليةٌ هَوَتْ

بول شاوول

رحل الدكتور سهيل إدريس بعد معاناة طويلة مع المرض، ليتركَ خلفه إرثًا متنوّعًا خصبًا ورحبًا من الرواية والقصة والترجمة، إضافةً إلى مجلة «الآداب»، و«دار الآداب»، وترجماتٍ عديدةٍ بارزة، إلى تأسيسه اتحادَ الكتّاب اللبنانيين و«جمعيةَ القلم المستقلّ»...

لم يكن إدريس حالةً كتابيةً تتجرّأ (في كتاباته وفي ترجماته) على الممنوع والصامت العموميْن حوله فحسب. ولم يكن محرّكًا ثقافيًا رائدًا في هذا المجال، جَمَعَ ما لا يُجمع في زمن الانقسامات الثقافية ـ الإيديولوجية والسياسية فحسب. بل كان في كلّ ذلك من التغييريين والداعين إلى التجاوز، لتكون مجلةُ «الآداب» المنبرَ، ودارُ الآداب الأفقَ والحضنَ، وليكون هو من الأصوات القومية العالية... القومية العروبية الحضارية الديموقراطية والتقدمية الجامعة (لا عروبة أنظمة القمع)، من دون الوقوع في انغلاقٍ أو شوفينية؛ وهذا ما يفسّر هذه المروحةَ الشاسعةَ لانفتاحه ولترجماته.

إنه زمنُ الأحلام الكبيرة عاشها سهيل إدريس، وفي كلّ الاتجاهات؛ لكنه كان أيضًا زمنَ النكسات الكبيرة. ويكفي أن نقرأ له **أصابعنا التي تحترق** لنحسّ بعمق النكسة القومية بعد ١٩٦٧. ومن هذا الانتماء القومي ـ التغييري كان لسهيل ادريس أن يُطلّ في معاركه الثقافية والفكرية بروحٍ سجاليةٍ رفيعة. ذلك أنّ ذلك الزمن «الجميل» كان زمنَ التيارات والمدارس والأفكار والريادات، وكان من الطبيعي «التصادمُ» الحيُّ بين كلّ هذه الظواهر. وكان من الطبيعي أن تتّخذ هذه الحروبُ معانيَ بيروت، آنئذٍ، الضاجّةِ بالتعدد والخصب والتنوع والتناقض.

قامةٌ عاليةٌ سهيل إدريس، وبلا تصنيف مقنّن ومحدّد، لأنّها، بعلوّها، فوق كلّ تصنيف. قامةٌ عاليةٌ هَوَتْ، في زمنٍ كأنما ينفي كلّ إنجازاته الكبرى، وكلّ تجلّياته. رحل في الزمن الجَحود، في زمنِ تشوُّش الانتماءات، وموسمِ الهجرات إلى القبائل والطوائف والحروب، وتراجُعِ كلّ ما صَنَعَ مجدَ الريادات، والإبداع، والأفكار الكبرى في لبنان والأمة العربية.

رحل، وقبل أن يرحل، صَمَتَ طويلاً سهيل إدريس. صَمَتَ وكأنّ صمتَه احتجاجٌ على ما آلت إليه أحلامُ أجيالٍ كاملة. كأنما كان يكابر «مرضَه» مكابرتَه الأمراضَ المتفشّيةَ في هذا الزمن. لكنْ كما كان في قوله كبيرًا، كان في صمته الأخير كبيرًا أيضًا، ذلك الصمت الذي يختزن عصرًا كاملاً من التنوير والإبداع والأحلام... والهزائم!

برحيل سهيل إدريس نَفْقد مؤسّسًا صلبًا، ومبدعًا كبيرًا، ورائدًا من روّاد النهضة العربية والحداثة والجِدّة بأبهى صورها المعاصرة.

برحيله فقدتْ بيروتُ منارةً شاهقة.

جريدة المستقبل، ٢٠٠٨/٢/٢٠

سهيل إدريس... أكثرُ من رجل لأكثر من مهمة

عبّاس بيضون

حقبةٌ كاملةٌ من عمرنا الثقافي تنطوي بوفاة سهيل إدريس وتَدْخل في التاريخ. حقبةٌ ليس فيها إلاّ الكثير، ومن كلّ شيء: الكثيرُ من الناس والأحداث والمعارك والأحلام والمبادرات والخسائر. فسهيل إدريس كان دائمًا في غمرة مشروع أكبر من أن يتحقّق في عمرٍ واحدٍ وبرجلٍ واحد. ونحن، إذ نطالع حياتَه، لا نجد في مَفارقها الفصلَ الأماميَّ في ثقافتنا فحسب، بل موجاتٍ كبيرةً وتياراتٍ ومراحلَ أيضًا. الفتى المعمَّم الذي رمى العمامةَ جانبًا، بعد أن ضاق بالشيخ الصغير الذي كانه، سافر إلى باريس. لم يكن يترسّم خطواتِ طه حسين، لكنّ طريقَ طه حسين كانت ذلك الحين أكثرَ من سيرةٍ شخصية. وما بين الأزهر وباريس امتدّت ملحمةُ جيل، وعلى بعدٍ ما بين الاثنين كان لدى سهيل إدريس من التفاؤل ما جعل القفزةَ ممكنةً. وإذا كان طه حسين التقى بديكارت وأندريه جيد وسوفوكل في باريس، فإنّ سهيل إدريس التقى هناك بجان بول سارتر وألبير كامو. لكنه قبل كلّ شيء التقى هناك بالبوادر الأولى للمغامرة القومية.

لم يكن إدريس الوحيدَ في ذلك. فإلى جانبه نخبةٌ من الذين كانت الرحلةُ إلى باريس بالنسبة إليهم بحثًا عن الذات: الذات التي بحثوا عن فحوى لها عند برغسون وسارتر وكامو. كانت هذه محاولةً لإيجاد صعيدٍ فلسفيّ للفلسفة القومية، وهي محاولة لم تكن الأولى: فربما كانت لها سابقةٌ عند ميشيل عفلق الإنسانوي ذلك الحين، وزكي الأرسوزي الباني فلسفتَه على عبقرية اللغة، في حين كان آخرون يبنون على الجيوبوليتيك وعلى عنصريةٍ مضمَرة. لقد كانت باريس بالنسبة إلى إدريس ورفاقه، كما كانت اللغةُ الفرنسية،

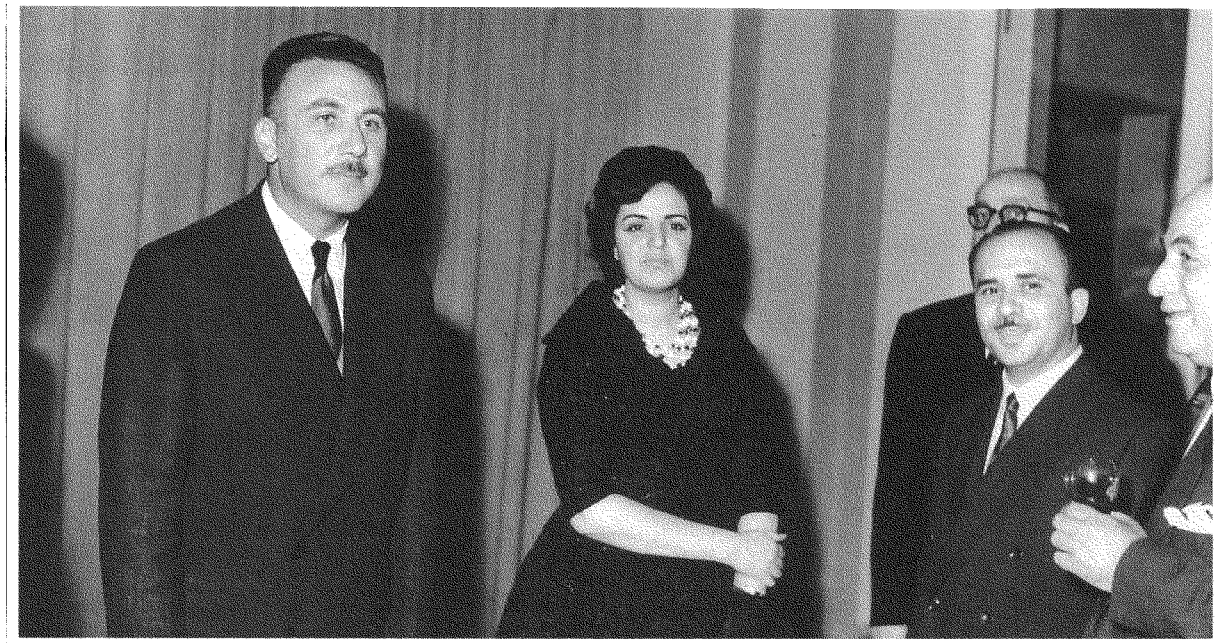

مع عايدة ونزار قبّاني

محلاً لترجمة الذات أو اجتراحها. أدرك إدريس مبكرًا أنّه مندوبٌ لمهمةٍ مزدوجة: فهو لم يكن المتأمّلَ أو الكاتبَ فحسب، بل كان، بالدرجة نفسها، الناشرَ والمنظِّمَ والمحفِّزَ أيضًا. كان غيرَ متوقَّعٍ أن يعود حاملُ دكتوراه كسهيل إدريس بمشروع مجلة. طه حسين فعل ذلك حقّاً؛ لكنه، قبل ذلك وبالتوازي معه، شَغَلَ عمادةَ الجامعةً، بل ووزارةَ التربية أيضًا. سهيل إدريس كان بالتأكيد من أولئك الذين يَعرفون كيف يبنون ابتداءً من الصفر، وكيف يَسْهرون بانتظامٍ على رفع البناء لبنةً لبنةً: فالانضباطُ والانتظامُ والمخيّلةُ هي وحدها التي تَصنع المشاريع. وسهيل إدريس، من اللحظة الأولى، صانعُ مشاريع. حياتُه، في الواقع، هي هذه المشاريع التي يَكبر أيٌّ منها عن طاقةِ رجلٍ واحد:

كان لديه مشروعُه الروائي. وبالفعل ظهرتْ حلقتُه الأولى، **الخندق الغميق**، وهي فاتحةُ عملٍ روائيّ قام في الأساس على السيرة الذاتية. وإذا كانت **الخندق الغميق** سيرةَ الطفولة البيروتية، فـ **الحيّ اللاتيني** سيرةُ الشباب الباريسي. لا بدّ من أنّ هذه الجرأة على الذات، وهذا الكشفَ عن الذات، كانا جديديْن في الرواية العربية، وكان طه حسين من أوائل الذين جعلوا حياتَهم موضوعَ كتابتهم. مثلَ طه حسين، روى سهيل إدريس حكايتَه مع المعهد الديني، وحكايتَه في باريس. لكنّ يومَ إدريس كان غيرَ **أيام** طه حسين. فمهما بلغتْ سخريةُ الثاني وتحرُّرُه، إلا أنّه كان يسوق ذلك بقدر من الوقار والحرص والتأبّي عن الحميم والتورُّع عن مسّ قواعد الحشمة. أما **الحيّ اللاتيني** فليست بذلك الحرص ولا بهذا التورّع: فهي روايةُ تمرُّدٍ وانتهاكٍ واجتراءٍ على العمود الأخلاقي وغوصٍ في الحميم، لكنها أيضًا روايةُ تفاؤلٍ وتطلّعٍ إلى المستقبل. بوسعنا أن نقول إنّ هذه الرواية تستحقّ الضجّةَ التي أعقبتْ صدورَها؛ فهي، على نحوٍ ما، روايةُ جيل.

ذلك المزيجُ من الرغبة والطموح والنوستالجيا القومية والتفاؤل كان ركيزةَ ما يمكن أن نسمّيه آنذاك بـ «الحلم العربي.» وقد آلى سهيل إدريس على نفسه أن يَنْشر هذا الحلم. غدت الآداب الصادرةُ في بيروت مركزًا للقاء النخبة، لكنها كانت أيضًا مَصْنعًا لثقافة جامعة. فالمجلة، الصادرةُ في أصغر بلد عربي، كانت حاملةَ هذا المدّ القومي الذي تدفَّقَ بشبه معجزة، وصَنَعَ لتوّه صعيدًا واحدًا وسقفًا واحدًا. حَملت الآداب هذا المدّ، أو بالأحرى تكتّلتْ بصياغته ثقافياً، فكانت ساعةُ التجديد: في الشعر والرواية والمسرح والفنّ التشكيلي والنقد والإيديولوجيا- وهذه جميعُها تفتّحتْ في الآداب. لقد كانت هذه الأخيرةُ مصنعَ ما سمّاه طه حسين بـ «الثقافة الجديدة.» كانت الوجوديةُ، مطعّمةً بماركسيةٍ قوميةٍ، هي أساسَ دعوةٍ بدت في ضوء المرحلة أوضحَ مما كانت عليه وأكثرَ تماسكًا. لكنّ الآداب كانت أيضًا عبقريةً في الصحافة الثقافية: رسائل من باريس وموسكو وبغداد... وكانت غنيةً وجديةً: سجالٌ متحرّكٌ في أبواب النقد ونقد النقد؛ أعدادٌ خاصّةٌ، بعضُها عن الفن التشكيلي يومذاك؛ ترجماتٌ لنصوصٍ كاملة، بعضُها لسارتر وبريخت وبيراندييللو... وكانت معاصِرةً تتواقت هذه المرةَ أو تكاد مع اللحظة العالمية. كانت جنيْنةً زاهرةً حقّاً، لكنْ تحت السطح كانت تتكون نماذج جامعة في الأدب والفن.

روايةُ الآداب بالطبع متعددة، ولا تقف عند ذلك الحد. لكنْ بوسعنا مع ذلك أن نتكلّم عليها كمدرسةٍ وناشرٍ للحداثة، كإيديولوجيا قومية وكحارس على أن لا تُفلتَ الحداثةُ من النطاق القومي. ومع تراجع المعجزة وانحسار المدّ وتشظّي المشروع الجامعي، صارت لرواية

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيها الأب المؤسّس

الآداب حلقاتٌ أخرى؛ فهي باتت أكثرَ من مجلة، لكنْ أيضًا مع مشروعٍ لا يقلّ تطلُّبًا: **المنهل** قاموس فرنسي ـ عربي مع جبّور عبد النّور، ثم دار الآداب إحدى الدور العريقة القليلة التي تصنع كتّابًا،...

فكيف تتسع حياةٌ واحدةٌ لكلّ هذه الإنجازات، وكلٌّ واحدٍ منها فوق طاقة رجل؟! كيف تنجح كلُّها، ويغدو كلٌّ منها مثلاً؟! إنه سرُّ سهيل إدريس، والأرجحُ أنّ الزواج بين الرغبة والتنظيم، وبين المخيّلة والحساب، وبين الجرأة والمثابرة، هو الذي أثمر ذلك كلَّه. لقد أعطى سهيل إدريس اسمَه لحياتٍ كثيرةٍ، لذا فإنّ موته يمرّ بلطف وهدوء كأنه لم يحدث.

جريدة السفير، ٢٠٠٨/٢/٢٠

نهاية عصر ——— پيار أبي صعب

هكذا ترجّل المحاربُ القديم. على مهلٍ أنزل عن كتفه اليمنى البندقيّةَ التي رافقتْه في كلّ المعارك، أكثرَ من نصف قرن. وضعها في ركنٍ آمن. استلقى ببطء وهدوء، ثم مضى في استراحته الأخيرة.

إنّه أكثرُ من رجل واحد: الأديب والناشر والصحافي والمترجم. المثقف الملتزم، والعالم اللغوي، ورجلُ القواميس. سهيل إدريس (١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨) الذي رحل صباحَ أمس كان قد انسحب شيئًا فشيئًا من دائرة الضوء. في السنوات الأخيرة، حاول أن يجد تسويةً مع المرض والشيخوخة، وهو الذي لم يساومْ مرّةً على قناعاته الفكرية والأدبية والسياسية. لقد نظّم تركتَه جيّدًا: نجلُه سماح منذ سنوات على رأس مجلّة الآداب، أعطاها نَفَسًا جديدًا، ولا يكاد يخرج من معركة إلاّ ليدخلَ في أُخرى... وفيّاً ـ على طريقته ـ لهذا التقليد العريق الذي قامت عليه المؤسسةُ في زمنٍ آخر. كريمتُه رنا على رأس دار الآداب، التي تواصل رهانَها على النوعيّة والجرأة والتجديد والاختلاف، تحت العين الساهرة للأديبة عايدة مطرجي، رفيقةِ الدرب التي شاركتْ في وضع المداميك الأولى لمغامرةٍ طويلةِ النفَس، تتواصل اليوم بالزخم نفسه.

وَضَعَ الأديبُ والناشرُ اللبناني نقطةً نهائيةً، خاتمًا الفصلَ الأخيرَ من حكايةٍ تختصر نصفَ قرن في مسار الوعي الثقافي العربي: من «الكليّة الشرعيّة» والتكوين الأزهري، إلى الصخب الوجودي في باريس على أرصفة «الحيّ اللاتيني»؛ ومن الحلم الناصري، إلى زمن النكسات والانهيارات... عاش سهيل إدريس أكثرَ من حياة، وبقي يدحرج صخرةَ سيزيف، مسكونًا بالهمّ القومي في زمنٍ تفتّتت الجغرافيا وانحسار الأحلام. وبعد انقطاعٍ طويلٍ عن الأدب، فاجأ الجميعَ بجزء أوّل من مذكّراته (هل هناك في الأدراج أجزاءٌ أخرى؟): **ذكريات الأدب والحبّ** (٢٠٠٢) صَدَمَتْ بجرأتها، وسلّطت الضوءَ على تجربةٍ إنسانيّةٍ وإبداعيّةٍ فريدة.

من أين نبدأ اليوم، ونحن نستعيد محطّاتٍ من سيرة الرجل ـ المؤسسة وإنجازاته؟ مِنْ أدبه الروائي والقصصي القليل؟ مِنْ قواميسه؟ مِنْ معاركه وافتتاحياته في الآداب التي جمعها في **مواقف وقضايا أدبيّة**، ثم في **في معترك القوميّة والحريّة**؟ وهل ننسى ترجماته الرائدة لسارتر وكامو ودوراس ودوبريه وغارودي...؟

حين أَقبلَ على الرواية كان همُّه تدوينَ تجربته الشخصية في باريس، فإذا به يضع الحلقةَ الأولى من ثلاثيّةٍ روائية، أشبهَ بسيرةٍ ذهنيّة. حين يؤتى على ذكر **الحيّ اللاتيني**، سرعان ما نَسمع أو نقرأ عبارةَ «صراع الشرق والغرب» التي تتردد دائمًا. لكننا نستعيد أولاً سرابَ تلك الألزاسية الشقراء في لوحةٍ ضبابيّةٍ داكنةٍ تَسكن مخيّلةَ جيلٍ عربي كاملٍ عاجزٍ عن قطع حبل السُّرّة مع التقاليد الثقيلة، ليلتحق بالحداثة. **الخندق الغميق** تدور حول صراع بين جيلين من أجل التقدم والتحرر. و**أصابعنا التي تحترق** تجسّد مشاغلَ مثقف عربي في خضمّ التحوّلات السياسية والاجتماعية. هكذا هو سهيل إدريس دائمًا: شاهدٌ أمينٌ على مشاغلِ عصره... هو الطالعُ من رحم مرحلةٍ خصبةٍ بالتناقضات والصراعات والمشاريع النهضوية وأوهام الحداثة.

مع سعيد فريحة كتب مقالاته الأولى في **الصيّاد**، قبل أن يراسل **بيروت المساء** من باريس. نزار قبّاني كان شريكَه في تأسيس الدار. بهيج عثمان ومنير البعلبكي أطلقا معه المجلّة. جبّور عبد النّور شاركه في **المنهل**. مع قسطنطين زريق وأدونيس وغيرهما أسّس «اتحادَ الكتّاب اللبنانيين» الذي بقي أمينَه العامّ لدورات متتالية. وترك سعيد تقي الدين تأثيرًا واضحًا في تكوينه. أحبطتْه النكسةُ، فتوقّف عن الأدب، وانصرف إلى تأليف القواميس. «الشيخ الصغير» خَلَعَ العمامةَ مبكرًا، وأحبّ النساءَ حتى الرمق الأخير، وأعطى للأجيال اللاحقة مثالاً عن كيفيّة تحطيم القيود الاجتماعية، وانشغل بقضايا العروبة واللغة والأدب والحرية والحداثة التي لم تفارقه يومًا.

قد يبدو سهيل إدريس لبعض الجيل الجديد «محافظًا» في أذواقه الشعرية، إذ بقي يزدري قصيدةَ النثر حتّى النهاية. لكنّه بالتأكيد أكثرُ من شخصٍ في رجل واحد. ورحيلُه يعلن نهايةَ عصر!

جريدة الأخبار، ٢٠٠٨/٢/٢٠

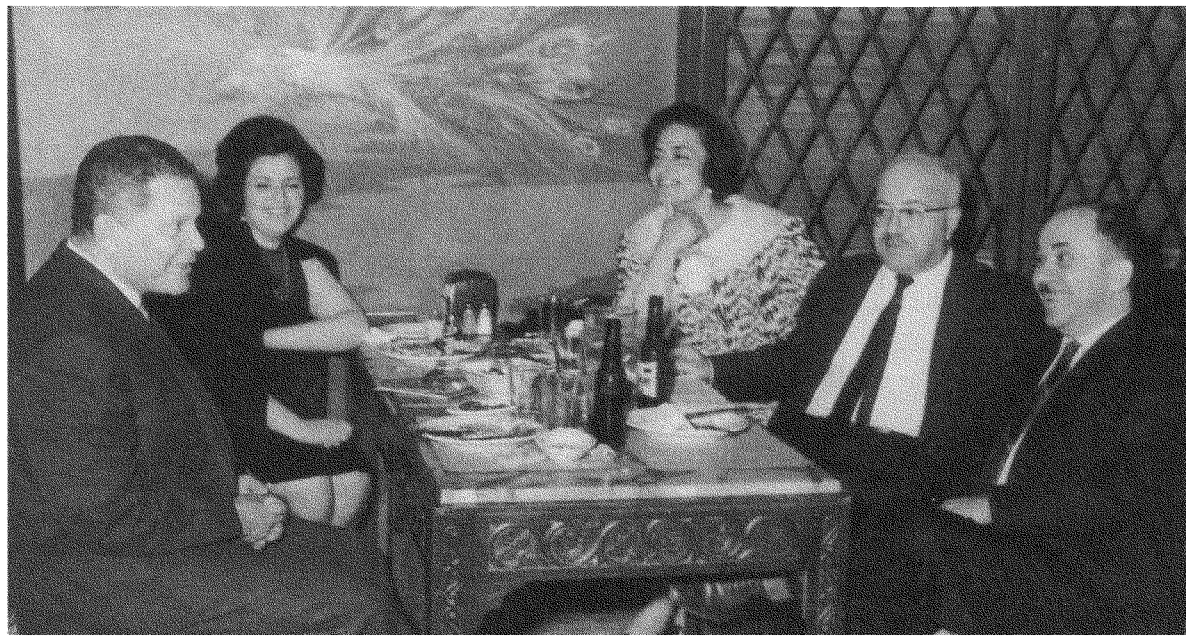

مع منير بعلبكي وزوجته روحية، ويوسف السباعي وعايدة

سهيل إدريس الذي أعرفه؟! — شوقي بغدادي

كي نفهم جيدًا أهميةَ سهيل إدريس كشخصية ثقافية مؤثّرة، لا بدّ أولاً من أن نفهمَ مسارَ تحوّلاته الفكرية التي حوّلتْه من مرشّحٍ لمنصبٍ ديني إسلامي بارز إلى مرشّح لرائدٍ ثقافي عربي معاصرٍ ومتميز.

تميّزتْ هذه التحوّلاتُ منذ بدايتها في العام ١٩٤٠ بنزوع ثوريّ ـ إذا صحّ التعبير ـ متمرّدٍ على الطاعة العمياء، حين قرّر الطالبُ المتخرِّج حديثًا من كليّة المقاصد الإسلامية في بيروت وكليّة فاروق الشرعية بعدها أن يَنزع عنه الزيَّ الديني المشايخي الذي صاحَبَه طوال خمس سنوات، وأن ينخرط في العمل الصحفي بثيابه المدنية، كمن يقرّر أن يدخل العصرَ من أوسع أبوابه. وهذا ما هيّأه لطموح عصريّ أكبر عَبّر عنه سريعًا في نهاية الأربعينيات بالسفر إلى عاصمة النور باريس كي يلتحقَ بجامعتها الشهيرة «السوربون» ويحوزَ فيها الدكتوراه في الأدب العربي عامَ ١٩٥٢. وما كاد يعود حتى تَرجم طموحَه المتجدّد باستمرار بإصداره مجلةَ الآداب الشهرية عام ١٩٥٣، والتي تألّقتْ منذ أعدادها الأولى بموادّها الجذّابة الرفيعة، حتى غدت بعد عامٍ واحدٍ المجلةَ الأولى من نوعها في الوطن العربي. وشهرًا بعد شهر توضّحتْ معالمُ رسالة فكرية قومية حديثة: ذلك أنها كانت مطعَّمةً بالوجوديّة، وهي فلسفةٌ سادت بعد الحرب العالمية الثانية لسنوات كحاضنةٍ أساسيةٍ لنزعة الحرية الفردية، وبفكر الكاتب الإنكليزي والمفكّر التحرري البارز كولن ويلسن، صاحبِ كتاب **اللامنتمي**، الذي نشرته دارُ الآداب وروّجتْ له كثيرًا.

صحيح أنّ الدكتور إدريس عمل لسنوات في أنشطة ثقافية متنوعة، مثل التدريس الجامعي، وقيادةِ اتحاد الكتاب اللبنانيين، وأمانةِ «اللجنة اللبنانية لكتّاب آسيا وإفريقيا،» وغيرها من مهامّ؛ إلا أنّ عمله في رئاسة تحرير الآداب ودار النشر المنبثقة عنها عامَ ١٩٥٦ كان المحورَ الأكبرَ لنشاطه. ومن خلال هذا العمل بالذات برز كمبدع في الكتابة القصصية والروائية والمشاركة في تأليف المعاجم. ولا شكّ في أنّ مجموعاته القصصية الستّ، وروايتِه الثلاثَ (**الحيّ اللاتيني** ١٩٥٣، و**الخندق الغميق** ١٩٥٨، و**أصابعنا التي تحترق** ١٩٦٢)، ستبقى مَعلمًا بارزًا في مسيرة القصة والرواية العربية وتطوّر هذه المسيرة باتجاه الحداثة والعصر أبعدَ فأعمق. وصحيح أيضًا أنّ مجلة الآداب قد تَراجع دورُها الرائد بعد هجمة مجموعة كبيرة من المَجلات العربية الراقية؛ إلاّ أنّ اسمَ سهيل إدريس، كرائدٍ متميّز في الأدب العربي وناشرٍ سخيّ متنوع، حفظ للمجلة بعضَ بريقها، وخاصةً بعد أن تولّى ابنُه الدكتور سماح رئاسةَ تحريرها. إلاّ أنّ المتاعب المادية أثّرتْ أخيرًا في مواعيد إصدارها من شهرية إلى مرة كلَّ شهرين، غير أنها ما تزال تؤكّد حضورَها من حينٍ إلى آخر كمجلةٍ طموحةٍ لا تتنحّى عن دورها الريادي حتى الآن.

هذا هو سهيل إدريس باختصار شديد. غير أنّ صلاتي الشخصية به هي التي وفّرتْ لي أكثرَ من غيري آنئذ فرصةَ فهم شخصية هذا الرائد، وأنا بعدُ في سنوات طموحي الأولى بعد تخرّجي مباشرةً من كليّة الآداب في جامعة دمشق. كانت بداياتي معه مبكرة إذن. وقد شجّعتني استجابتُه لي، حين نَشر لي في مجلته جميعَ ما كنتُ أبعث به إليه من أقاصيصَ وقصائد، على أن أتابع مراسلتي معه. فكنتُ أكتب أحيانًا نقدًا لبعض مجموعاته القصصية، وكان ينشره على الرغم من أنّ بعضه كان يشير إلى مآخِذَ على بعض قصصها. وكان يراسلني بالمثل معلّقًا على بعض إنتاجي، فأستغرب كيف يجد الوقتَ لكتابة هذه الرسائل لأديبٍ ناشئ مثلي، موجّهًا أو ناقدًا أو معجَبًا، كما حدث لي معه حين علّق على قصتي «الأموات الذين نعرفهم» التي كتبتُها أثناء عملي مدرّسًا في طرطوس من خلال علاقة إنسانية

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيها الأب المؤسّس

مؤثّرة ربطتني بأُسرة فقيرة مسيحية كانت الأمُّ فيها تساعدني في تنظيف غرفتي وترتيبها، حيث كنت أقطن وحدي، وتَسْهر عليَّ كأمٍ حنون أيامَ مرضي. هذه القصة المستوحاة من تلك العلاقة أعجبت الدكتور سهيل كثيرًا وقتئذ. ومن خلال ملاحظاته النقدية اللمّاحة استفدتُ حقّاً في فهم أفضلَ لتقنيات الكتابة وقيمةِ التجربة الحية في إثراء الموضوع. وما أزال حتى اليوم أَذْكر بكثير من المودة والعرفان ملاحظتَه في تلك الرسالة، بعد إبداء إعجابه بالقصة وأنها كانت أفضلَ من سابقاتها بمراحل. فقد قال ما معناه: «لا تكتبْ يا شوقي إلاّ عن الموضوعات التي تعرفها جيدًا...» ومنذ تلك الملاحظة أو النصيحة فهمتُ بشكلٍ أفضل مغزى دور «الواقعية» في فهم الكتابة الإبداعية أعمقَ فأعمق. وكان محقّاً بالفعل في ما لاحظه؛ فقد كان جيلُنا متأثّرًا إلى حدٍّ بعيدٍ بالشطحات الرومانسية لدى القصّاصين المصريين أمثال إبراهيم الورداني وعبد الحليم عبد الله وآخرين، وبالكتابات الإنشائية المنمّقة ككتابات المنفلوطي والزيّات والرافعي. وعندما تابعتُ فيما بعد سجالَه مع القاصّ والمسرحي المبدع سعيد تقيّ الدين، أفادني ذلك كثيرًا في فهم وجهة النظر لدى كلٍّ من الكاتبين الكبيرين، على الرغم من أنّ أحدهما (وهو سعيد تقي الدين) كان ذا نزعة قريبة جداً من الحزب السوري القومي الاجتماعي في حين كان الدكتور سهيل بعكسه ميّالاً إلى الفكر القومي العربي: ذلك أنّ سجالَهما الرفيعَ كان يحمل روحَ التفاهم العميق والإخلاص في فهم الآخر. ومعهما فهمتُ أيضًا معنى الضرورة في تطوير طرائق الأداء اللغوي المتحرر من المحسِّنات البديعية التقليدية.

في الوقت ذاته كنتُ مع عدد من رفاقي في «رابطة الكتاب السوريين»، التي تحولّتْ بعد عامين من إنشائها (أيْ في عام ١٩٥٤) إلى «رابطة الكتاب العرب»، مثل سعيد حورانية ومواهب كيالي وأخيه المبدع الساخر حسيب، إضافةً إلى ليان ديراني وصلاح دهني ومصطفى الحلاّج (الذي كان ذا ميول بعثية آنذاك ولكنه انتسب إلى الرابطة)، متأثّرين بالفكر الماركسي. وكنا جميعًا ميّالين إلى النشر في مجلة **الثقافة الوطنية** ذاتِ النزعة الماركسية. إلاّ أنني، مع سعيد حورانية ومصطفى الحلاّج، آثرنا ألاّ نَقطع مع الآداب، ذات النزعة القومية الوجودية، والتي كانت عهدئذٍ مضادّةً لأفكارنا السياسية اليسارية. وهكذا نجحتُ مع رفيقيَّ سعيد ومصطفى خاصةً في حفظ نوع من التوازن في العلاقات الفكرية بين مجلتين عزيزتين على قلوبنا على الرغم من اختلافهما الفكري. وهذا ما رشّحنا لعقْدِ صداقةٍ عميقةٍ وطويلة ومؤثّرة مع سهيل إدريس شخصيّاً، ولاسيما بعد أن زرتُه في بيروت أكثر من مرة، وكان يستقبلنا في كل مرة بوجه بشوش قادرٍ على الاستيعاب والإصغاء والتفهم. تلك الخصال رسّختْ في اعتقادي دورَ سهيل إدريس كرائد معتدل ومتعقل قادر على إشاعة التآلف بين المتناقضين وضمِّهم إلى صدره، وهي الخصال التي جعلتْ بالفعل من مجلته المنبرَ الأكبرَ والألطفَ في حمل رسالة الثقافة العربية المتجددة لسنوات طويلة، وجعلت من دار الآداب الحاضنَ الأوسعَ صدرًا لجذب الشعراء الشباب إلى جوار الروّاد القدامى. وهذا واضحٌ جداً في نوع الأسماء التي يمكن القول إنها انتمت إلى دار الآداب كليّاً على الرغم من اختلاف الكاتب معها في بعض مواقفه الفكرية، مثل الروائي الكبير حنّا مينه، الذي أَصدر كلَّ رواياته تقريبًا - ما عدا الأوائل منها - عن دار الآداب. وهكذا نشطتْ هذه الدار مع نشاط حنّا مينه وأمثاله، وصارت رواياتُه المتتالية الجذّابة لعشرات الألوف من هواة القراءة تعبيراً ميدانيّاً رابحًا يؤكّد قيمةَ العلاقة الصحيّة بين الكاتب الجماهيري الشهرة، والناشر الذكيّ والأمين في تعامله المالي وفي قدرته على توزيع الكتاب والترويج له. ولا ننسى في هذا السياق أهميةَ علاقة نزار قبّاني، وهو الشاعر المقروء جيدًا بدار الآداب في بداياتها وبداياته، حتى يمكن القول إنّ هذه الدار كانت نقطةَ انطلاق نزار نحو الشهرة الكبرى.

ما أكثرَ ما يقال في سهيل إدريس، ليس كشخص مبدع كتابيّاً فحسبُ، بل أيضًا كظاهرة ثقافية عربية متطورة باستمرار، وكرمز مهمّ من رموز الثقافة المتقدمة بشجاعة في الدفاع عن الأصالة وعن حرية التعبير. حتى ليمكن القولُ إنّ غياب سهيل إدريس لن يكون قصيرًا ومؤقّتًا، بل لعلّه الغيابُ الأطولُ والأكبرُ الذي يُشْبه غيابَ أمّ كلثوم وعبد الوهّاب، هذين المبدعين الكبيرين اللذين لم يعوَّضا حتى الآن.

جريدة النور، ٢٠٠٨/٢/٢٧

المعلّم سهيل إدريس

رشاد أبو شاور

لم أفاجأْ برحيله، ولكنّني فُجعتُ، رغم معرفتي بأنّه يعاني مرضَ كليتيْه، وبأنّ حياته باتت تنقلاً بين البيت والمستشفى لغسل الكليتيْن.
عرفتُ أنّه لا يحبّذ أن يراه أصدقاؤه ومحبّوه وقد أنهكه المرض؛ فهو لم يَعْتَدْ نظراتِ الإشفاق، وهو الذي عرفناه صلبًا، حيويَّ الحضور.
ولذا لم أزره عندما دُعيتُ إلى المشاركة في مؤتمر العودة ببيروت.

عرفتُه عبر مجلّة الآداب التي طالما تشوّقتُ، ككثيرين غيري، إلى رؤية اسمي على غلافها، واحدًا من قصّاصين تُطْلقهم، فيمنحُه ذلك اعترافًا بأنّه بوركَ قاصّاً، وبأنه بات يحلّقُ في سماء الوطن العربي محمولاً على أجنحة الآداب.

غاضبًا، مع جبرا إبراهيم جبرا وأحمد أبو سعد

في العام ٦٤ نشرت لي الآداب مقالةً كتبتُها عن المجموعة الشعريّة الأولى للصديق فوّاز عيد، **في شمسي دوار**، التي كانت قد صدرتْ عن دار الآداب أواخرَ العام ٦٣. وفي العام ٦٧، بعد هزيمة حزيران، ورحيلي مع أسرتي بعيدًا عن أريحا، وإقامتي في مخيّم النصر قرب جبل النصر في العاصمة الأردنية عمّان، وبدء بشائر المقاومة، وبروز شخصيّة الفدائي، نشرت الآداب قصّتي الأولى «أشياء فلسطينية.» ومن بعد ذلك صرتُ أحدَ كتّاب الآداب، التي على صفحاتها نشرتُ أغلب قصصي القصيرة في مسيرتي الممتدّة حتى هذه الأيّام.

لمّا قرأتُ رواية **الحيّ اللاتيني** للدكتور سهيل إدريس، شُغفتُ بشخصياتها. وإلى اليوم، بعد عقود، ما زلتُ أتذكّر جانين مونترو، المعشوقةَ الفرنسية. بعد **الحيّ اللاتيني** قرأتُ **الخندق الغميق**. وعند صدور **أصابعنا التي تحترق** قرأتُها بلهفة، وعرفتُ لوعةَ الكاتب الذي انشغل بمجلة الآداب ودار الآداب، وضحّى بموهبته الروائيّة.

يمكنني القولُ إنّني قرأتُ كلَّ قصص سهيل إدريس القصيرة. وما زلتُ أحتفظ في الذاكرة ببعضٍ من التي كتبها حين لم يكن مشغولاً بهموم النشر، والانخراطِ في تأليف المعجمات، والإسهامِ في تأسيس وقيادة اتحاد الكتّاب اللبنانيين، ومؤتمرات اتحاد الكتّاب العرب...

سهيل إدريس، ورفيقةُ دربه السيّدة عايدة مطرجي إدريس، ضحّيا بموهبتيْهما خدمةً للآداب، المجلّة ودار النشر. وعَوّضا عن خسارتيْهما هذه برعايةِ كثيرٍ من المبدعين العرب ـ شعراء، وقصّاصين، وروائيين، ونقّادَ أدب، وباحثين. وهما معًا عملا على ترجمة روائع الأدب العالمي، وبخّاصة الأدب الفرنسي الوجودي، لأنهما رأيا في الوجوديّة دعوةً إلى الالتزام، والإبداع الحّر، والانفتاح العقلي على تيارات التجديد في الأدب والفكر؛ وهذا ما ينسجم مع الانتماء القومي للدكتور سهيل ورفيقته عايدة في الزمن الناصري الشجاع، زمنِ التطلّع إلى حاضرٍ ومستقبلٍ مغاير.

الآداب خاضت كلَّ معارك الأمّة وتحرُّرِ الإنسان العربي منذ مطلع النصف الثاني من القرن العشرين: ثورة الجزائر، ثورة اليمن، ثورة العراق، معارك مصر الناصرية، المقاومةَ الفلسطينية، و...المقاومة اللبنانية، والمقاومة العراقية. ولستُ أنسى معركتَها المجيدةَ في مواجهة الانفصال الذي قاده الإقطاعُ السياسي المتحالف مع النفط، مستغلاً أخطاءً ما كانت تبرِّر أبدًا فصلَ أوّلِ وحدةٍ عربيةٍ في القرن العشرين.

كنّا نتلهّف على الآداب التي مَنَعَها الانفصاليون، ونلجأ إلى سائقي سيّارات التاكسي بين دمشق وبيروت ليجلبوها لنا. وكنّا نشترك في قراءتها، ونتبادل أعدادَها، ونتابع على صفحاتها ما يكتبه الدكتور سهيل وأدباءُ العرب مشرقًا ومغربًا. وفي تلك الفترة أصدر سهيل إدريس مجموعته القصصية **رُحْماكِ يا دمشق**، مدينًا الانفصاليين، غيرَ متخلٍّ عن تعلّقه بهدف الوحدة العربية. وكان هذا ينسجم مع التزامه القومي العربي الناصري.

في أواخر الستينات، صرتُ أتردّد على مكتب الآداب في باب إدريس. وشجّعني وغيري تباسُطُ الدكتور سهيل، وحفاوتُه، على تكرار الزيارة من دون حرج أو استئذانٍ أو مواعيدَ مسبّقة. كان يُكْرم عليّ وعلى غيري من كتّاب الآداب بمنشورات الدار، وهي دائمًا كانت منتقاةً بعنايةٍ حفاظًا على مستوى الدار، وترسيخًا لثقة قرّائها المنتشرين في الأقطار العربية.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

عندما اشتدّ سعارُ الحرب الأهلية، اضطُّر الدكتور سهيل إلى الانتقال بعيدًا عن الخطر الذي دهم قلبَ بيروت. فتحوّل بيتُه في الفاكهاني، قربَ جامعة بيروت العربية، إلى مقرٍ مؤقّتٍ للمجلّة والدار. ولقد طال هذا الانتقالُ «المؤقّت» بعد أن تمّ تدميرُ قلب بيروت، وما عادت العودة ممكنةً: فقد تغيّر القلبُ والوجهُ، ودُمّرت الملامحُ الشعبية، وحَلّ بدلاً منها مشروعُ إعمارٍ لا صلةَ له بما كانه المكانُ في زمنٍ مضى!

الآداب منذ انطلاقتها حَملتْ رسالةً أفصح عنها الدكتور سهيل في افتتاحية العدد الأوّل الصادر في كانون الثاني عام١٩٥٣: «في هذا المنعطف الخطير من منعطفات التاريخ العربي الحديث، ينمو شعورٌ أوساطَ الشباب العربي المثقف بالحاجة إلى مجلّةٍ أدبيةٍ تحمل رسالةً واعية.» ويوضح الدكتور سهيل ملامحَ الأدب القومي الذي تبشّر به الآداب: «على أنّ مفهوم هذا الأدب القومي سيكون من السعة والشمول حتى ليتّصلَ اتصالاً مباشرًا بالأدب الإنساني العامّ، ما دام يعمل على ردّ الاعتبار الإنساني لكلّ وطني، وعلى الدعوة إلى توفير العدالة الاجتماعية له، وتحريره من العبوديّات المادية والفكرية، وهذه غايةٌ بعيدةُ الإنسانية. وهكذا تُسْهم المجلّةُ في خلق الأدب الإنساني الذي يتّسع، ويتناول القضيةَ الحضاريةَ كاملةً. وهذا الأدب الإنساني هو المرحلةُ الأخيرةُ التي تَنْشدها الآدابُ العالمية في تطورها...» (**مواقف وقضايا أدبية**، ص١٠).

سهيل إدريس كَتَبَ عن ديمقراطية الغرب الاستعماري عندما افتُضحتْ جرائمُ الاستعمار الفرنسي الوحشية ضدّ الشعب الجزائري، وضدّ ثوّاره الذين وُصفوا بـ «الإرهابيين.» وقد كتب افتتاحيةً لـ الآداب بعنوان «الديمقراطيّة والإبادة» فقال:

«تُكتب هذه الكلمةُ، وحربُ الإبادة دائرة الرحى في الجزائر المنكوبة بالاستعمار الفرنسي. وهذه الحرب التقتيليّة تتكشّف عن عدد من الحقائق لا يمكن أن يَعْمى عنها العرب: أُولاها أننا لا بدّ أن نَسخر بما يسمّونه الديمقراطية حين تَنْهض دولةٌ تزعم أنّها ديمقراطية لتشنّ حربَ إبادةٍ في بلدٍ يطالب بالحرية والاستقلال، وهي لا تتورّع بعد عن التصريح بأنها حقّاً حربُ إبادة وتقتيل. (...) وثالثًا أنّ 'الضمير العالمي' عبارةٌ مضلِّلةٌ خدّاعةٌ لا يمكن أن يُطمأنَّ إليها أداةً لإعلان الحقّ... ولقد اتفقت المصالحُ الاستعماريةُ في أرض الجزائر الشهيدة، فاختنق صوتُ الضمير ومات.» (من كتاب: **في معترك القومية والحرية**، والمقالة منشورة في الآداب بتاريخ ١ أيّار ١٩٥٦).

أليس ما كتبه سهيل إدريس في العام ٥٦ هو ما يحدث اليومَ على أرض العراق الشهيد، المذبوح من الوريد إلى الوريد، بحجّة الديمقراطية الأميركية؟! أليس هو ما تقترفه الصهيونيةُ التي تدمّر فلسطينَ، أرضًا وشعبًا، وبدعمٍ أوروبي أميركي، منذ ستّين عامًا؟!

هذه كتابةٌ حيةٌ، لكاتبٍ عربيّ حيّ الضمير، راءٍ منتمٍ ملتزمٍ، وليست كتابةً «خشبية.» ولذا أراها تنطبق على أحوال العرب المعاصرين الذين لا خلاص لهم إلاّ بالمقاومة!

في كتابَيْه النثريَيْن، **في معترك القومية العربية**، و**مواقف وقضايا أدبية**، اللذيْن ضمّا افتتاحيات الآداب منذ ١٩٥٣ وحتى ١٩٧٧، نستعيد وهجَ معارك العرب في الخمسينات والستينات، ونتعرّف أكثر على دور وخطاب مؤسّس الآداب، المجلةِ الفكريةِ والأدبيةِ والقوميةِ. وهو ما يعيد إلى الذاكرة معاركَ الجزائر، والعدوانَ الثلاثي على مصر الناصرية، وملحمةَ بورسعيد، وثورةَ اليمن ضد الاحتلال البريطاني، ونكسةَ حزيران، وانبعاثَ المقاومة الفلسطينية، وثورةَ لبنان عامَ ٥٨ التي أَسقطت الرئيس كميل شمعون، وجريمةَ الانفصال التي مزّقْت وحدةَ مصر وسورية. ففي مقالة بعنوان «الرفيقان» نُشرتْ في العام ٦٨، كتب سهيل إدريس: «إنّ الفدائي والأديب رفيقان حقيقيّان، رفيقا السلاح الأمثلان اللذان يحملان رسالةً متكاملةً، رسالةَ التحرير الكبرى. والقلم العربي الشريف لا يملك إلاّ أن يكون قلمًا فدائيّاً، رفيق البندقية الفدائية» (**في معترك القومية والحرية**، ص٨٥).

مَنْ عرف سهيل إدريس عن قرب سيفتقده إنسانًا متواضعًا، لطيفًا، مرحًا، محبّاً للفكاهة، يضحك من كلّ قلبه، أبعدَ ما يكون عن التعالي والتشوّف في التعامل...

رحل سهيل إدريس والآدابُ تواصل، بإشراف امتداده الدكتور سماح إدريس، معاركَ الأمّة، وتنحاز للمقاومة ثقافةً وفعلاً في فلسطين والعراق ولبنان، فاضحةً ديمقراطيةَ الزيف الأميركي، كما فضَحتْ من قبلُ كذبَ ديمقراطية فرنسا في الجزائر، وعدوانيةَ الإمبراطوريتيْن الآفلتيْن بريطانيا وفرنسا، المتحالفتيْن مع الكيان الصهيوني، في الحرب العدوانية على مصر الناصرية عام ٥٦.

لا أتردّد في القول إنّ سهيل إدريس واحدٌ من الآباء الكبار لأجيالٍ عربيةٍ مبدعة، أتشرّف بأنني واحد من «محاربيها،» فكرًا وكلمةً وممارسةً.

سهيل إدريس: شكرًا على كُلّ ما أعطيتَ لأمّتكَ!

جريدة القدس العربي، شباط ٢٠٠٨

مع سيد قطب (١٩٤٨)

جيلُ سهيل إدريس وحالُ لبنان والعرب

رفيق خوري

المشهد بالغُ التعبير عن حال لبنان والعرب، لا في الثقافة فقط بل أيضًا في السياسةِ والنسيجِ الاجتماعي ومقامِ العقل وهوايات القلب. فالباقون من جيل الأحلام الكبيرة الذي كان الدكتور سهيل إدريس واحدًا من نجومه اللامعة يتبادلون الأسى والذكريات، وهم في حضرةِ موتٍ عموميّ أقسى من رحيل كاتبٍ عاش فاعلاً في العصر لا مجردَ شاهدٍ عليه. ولا عزاء في مجلس العزاء. ولا شيء يتقدّم على الأسئلة الجارحة: أين بيروتُ الخائفةُ والمخيفة اليوم، من بيروتَ الواعدة الصاعدة التي عاد إليها الدكتور إدريس من السوربون في منتصف القرن العشرين لإقامة منارةٍ فكريةٍ هي مجلة الآداب؟ أين الشغبُ والاحتقانُ والكوابيسُ في أحيائها اليوم، من إبداع الشعراء والروائيين والمثقفين الذين أخذتْهم روايةُ **الحيّ اللاتيني** الى إشعال روح الشرق بمغامرة التنوير؟ وأين العواصمُ العربية التي يَضْربها اليومَ التمزقُ الاجتماعي والانقسامُ الطائفي والمذهبي وثقافةُ الموت، من الأيام التي كانت تمور بأحلام الثورة والتقدم والحداثة وتحريرِ فلسطين والوحدة؟

حين ظهرتْ روايةُ **أصابعنا التي تحترق** للدكتور سهيل إدريس كان جيلُه يتصوّر أنّ الحريق في أصابعه هو النورُ على طريق الأمة إلى العصر. لكنّ جيلَ الثورة في الماضي هو اليوم جيلُ الحنين إلى ذلك الماضي؛ وتلك قمةُ المأساة. فالأحلامُ انكسرتْ، والمزاوجةُ بين العروبة والحداثة والديمقراطية، وهي الصيغة التي قاتل من أجلها سهيل إدريس وجيلُه، تعرّضتْ لكلّ أنواع الضربات: الهزائم العسكرية في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، المزاوجة بين الاحتلال الخارجي والاستبداد الداخلي، تصاعُد التيارات الأصولية المعادية للعروبة والحداثة معًا والعائدة بنا إلى القرون الوسطى، وانحسار التيارات القومية والماركسية والليبرالية، والانتقال من حلم الوحدة العربية إلى كوابيس التمزق والحروب الأهلية داخل الكيانات. وما أكثرَ الطموحات التي ماتت من قبل أن يرحل سهيل إدريس وكثيرون من أبناء جيله، لا لأنّها كانت خاطئةً، بل لأنّ الظروف المعاكسة كانت أقوى منها؛ ولا لأنّ الجيل الذهبي استسهل الدربَ إلى التغيير، بل لأنّ التغيير في الشرق مهمةٌ بالغةُ الصعوبة وتحتاج إلى ما هو أكثرُ من أفكار النُّخَبِ العربية وتضحياتها ـ وهي نخبٌ عانت الاضطهادَ والسجنَ والنفيَ والقتلَ على أيدي الأنظمة السلطوية، وتعاني اليومَ، فوق ذلك، التخوينَ والعزلةَ عن الناس على أيدي التيارات الظلامية المتطرفة.

أليس لبنان الخارجُ من حرب طويلة هو اليومَ على شفيرِ حربٍ أخرى؟ أليس أسيرَ صراعاتٍ ومصالحَ إقليميةٍ ودولية، لها وكلاء محليون يلعبون أدوارَهم بحماسةٍ ولو قادت إلى الخراب؟

سهيل إدريس لم يستسلمْ، ولم يفقدْ إيمانَه بالعروبة والحداثة والديمقراطية. لكنّ جيلَه يرحل عن عالمٍ عربيٍّ يعود إلى الوراء.

جريدة الأنوار، ٢٠٠٨/٢/٢٢

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

عرّابُ زمنٍ وجيل

أمجد ناصر

كثيرون في الحياة الثقافية العربية اليوم لا يَعْرفون سهيل إدريس ولا يعنيهم اسمُه، إنْ لم يكونوا جاهلين به تمامًا.

قد لا يكون هذا ذنْبَهم. قد يكون ذَنْبَ الحياة العربية التي تَنْظر، منكّسةَ الرأس، بين قدميْها. كأنّها مجردُ حياةٍ يوميةٍ لا أمس لها ولا غد: حياةٍ محكومٍ عليها بيوميٍّ يُشْبه يوميَّ القصائد الدارجة؛ حياةٍ تؤجّر نفسَها بالقطعة والتجزئة، وتكدح، مثلَ الفَعَلة، لسحابةِ نهارها.

لذلك لن يبدو رثاءُ أحد الروّاد مفهومًا لكثيرٍ من الذين يكتبون اليوم.. أو يظنّون أنّهم يكتبون. سيبدو أنّ حارسًا قديمًا رحل، رجلاً طاعنًا في القِدم أَدركَه ملاكُ الموت. فمَنْ هو سهيل إدريس هذا الذي ترثيه أقلامُ الحرس القديم؟

لن يعرفوا أنه أحدُ آباء الحداثة الأدبية العربية التي يلِغون بها اليومَ ويعتبرونها اختراعَهم. ولن يَعْرفوا أنّهم يَحْملون، من دون ان يدروا، بعضَ جيناته!

فعندما نتحدث عن سهيل إدريس نحن نتحدث عن مجلة الآداب. وعندما نتحدث عن الأخيرة نتحدث عن زمنٍ حافلٍ بأهمّ السجالات والصراعات الفكرية والأدبية العربية إطلاقًا: إنّه زمنُ الانعطاف، المفترق الحاسم الذي ودّع زمنًا وكتابةً ودَشّن زمنًا وكتابةً جديديْن! فأيُّ اسمٍ عربي مهمّ من جيل التأسيس للحداثة الأدبية العربية لم تكن الآداب قابلتَه الأولى؟

قلةٌ هم الذين وُلدوا من رحمٍ أخرى!

زمنُ الآداب وشعرائها ونقّادها وقاصّيها لم يكن زمنَ جيلي. لم نكتبْ (وأقصد معظمَ أبناء جيلي) كلمةً واحدةً في الآداب، ولم نَنشرْ كتابًا واحدًا عن دار سهيل إدريس. لكنّ هذا لا يعني انعدامَ نسبنا إلى سلالة الآداب. وحتى عندما انتصرْنا لمجلة **شعر**، التي لم ندركها هي أيضًا، فإنّ ذلك الانتصار لم يكن، بالعمق، انعدامَ نسبٍ كاملاً مع الآداب؛ ذلك لأنّ **شعر** لم تكن لتوجدَ لولا وجودُ الآداب، وما كان للأخيرة ان يتّسع أُفقُها ويتجدّدَ دمُها لولا وجودُ غريمتها .

ليس لجيلي، أواسطَ السبعينات وأواخرَها، نسبٌ مباشرٌ مع آداب سهيل إدريس، ولا مع خطابه القومي. كان المناخُ العربي بدأ يتغيّر، والخطابُ القومي ينتكس بعد «انتكاسة» حزيران، ولم يكن خطابُ الآداب ـ في زمنٍ يتغير بسرعة ـ مغريًا للقادمين الجدد. فلقد كانت الآداب تواصل، بوهن، عبءَ انتكاسة النظام القومي العربي وعريه الكاملِ أمام إسرائيل. لذا لم نجد فيها الأدواتِ الكافيةَ لتحطيم السائد. منابرُ صغيرةٌ مبعثرة، شبهُ شخصية، وصفحاتٌ ثقافيةٌ لمجلاتٍ وصحفٍ فلسطينية ولبنانية، هي التي احتضنتْ غضبَ القادمين من النكسة القومية وجنرالاتِ الأنظمة والجلجلةِ الصادحةِ للقصيدة الوطنية. كانت **الرصيف** التي يحبِّرها علي فودة ورسمي ابو علي وجماعتُهما الرصيفية تَكتب على مقاعد مقهى أمّ نبيل (تحت مقرّ الآداب مباشرةً) خطابًا فوضويًا أكثرَ إغراءً ممّا كانت عليه الآداب. كانت هناك أشياء كثيرةٌ ينبغي تحطيمُها، بعد النكسة، بعد الثغرة، بعد الكيلو ١٠١، بعد اندلاع شرارة الحرب الأهلية ؛ ولم يكن لدى الآداب ما تقدّمه على هذا الصعيد.

لا أدري إنْ كان ما سأقوله صحيحًا أمْ لا. ولكنْ يبدو لي أنّ سهيل إدريس دارَه مرّا في مرحلتين: مرحلة الشعر ومرحلة الرواية. كانت مجلةُ الآداب مجلةَ شعرٍ بالدرجة الأولى. صحيحٌ أنّها نَشرتْ نقدًا وقصةً ومتابعاتٍ ثقافية، لكنّ الشعرَ والشعراء هم الذين صنعوا مجدَها: إنّها مجلةُ السيّاب والبيّاتي وعبد الصبور وحجازي وخليل حاوي وشعر المقاومة الفلسطينية. كان هناك قاصّون كبارٌ مرّوا فيها، ولكنها ـ على ما أظنّ ـ عُرفتْ بمعركة الشعر الحرّ الكبرى.

سيتراجع الشعرُ في مجلة الآداب ودارها، وستحلّ الروايةُ تدريجًا محلَّه. لا أدري إنْ كان سهيل إدريس قد فكّر في الأمر التالي على هذا النحو: القصيدة الجديدة لم تعد قادرةً على وصف الحياة العربية بعد معركة الشعر الحرّ؛ فلقد صارت فرديةً متشظّيةً، ذاتَ بؤرةٍ ضيقة، متغرِّبةً. الرواية هي التي يمكن أن تَصِفَ الحياةَ العربيةَ اليوم وتَشْهد عليها. إنّها [الرواية] ملحمةُ المدينة العربية ورايتُها في مواجهة العسف الداخلي، والرقابة، والتابوهات، والعشوائيات التي تفرّخ فيها الأصولية. هل خَطَرَ هذا في ذهن سهيل إدريس وهو يجعل الروايةَ المنتَجَ الأولَ لداره؟

أيّاً يكن الأمر، سيظلّ اسمُ سهيل إدريس حاضرًا بين قلّةٍ من أسماء العرب المعاصرين الذين فتحوا، فعلاً، طريقًا مشى فيه كثيرون. وهذا جوابٌ سريعٌ على شاعرٍ من جماعة الانترنت سألني بعد أن قرأ خبرَ وفاة صاحب الآداب: مين هو سهيل إدريس؟!

جريدة القدس العربي، ٢٠٠٨/٢/٢١

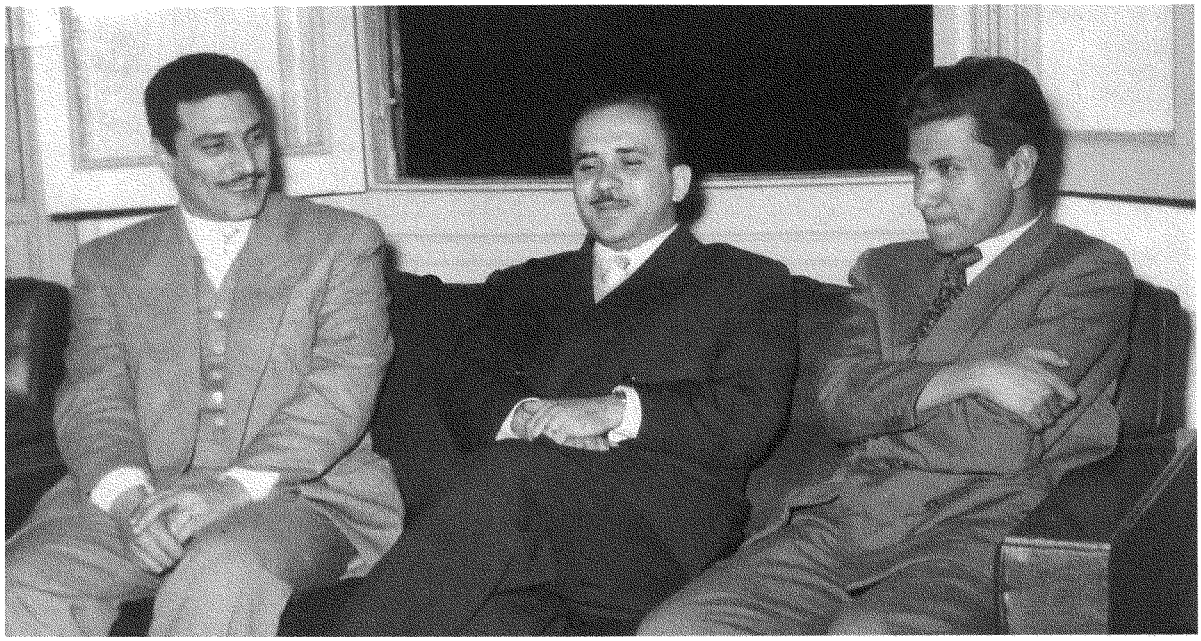

مع رجاء النقّاش

كَمْ كان نخيلُه باسقًا ورطبه طيِّبًا

صقر أبو فخر

اشتُهر في تاريخ الثقافة العربية شاعرٌ من بلدة الرملة في العراق باسم «كشاجم الرملي.» وكشاجم كان كاتبًا وشاعرًا وأديبًا وجدليّاً ومحدِّثًا في آن، أيْ أنّه أجاد خمسًا من المهن الرفيعة. لكنّ سهيل إدريس حرث طويلاً في عشرة حقول من الإبداع مرةً واحدة: فكان صحافيّاً وروائيّاً وقاصّاً ومسرحيّاً ومترجِمًا وناقدًا وأستاذًا جامعيّاً ومؤلِّفًا للمعاجم ونقابيّاً وناشرًا معًا. ومثلُ هذا الحصاد العميم قلما دان لأحدٍ غير سهيل إدريس.

كان سهيل إدريس صانعَ أقمارٍ في الأدب والشعر والثقافة طوال نحو خمسين سنة متواصلة. ومع أنّه أشعل فينا حرائقَ كثيرةً منذ أن قرأنا له **الحيّ اللاتيني** و**الخندق الغميق** و**أصابعنا التي تحترق**، إلا أنّ إنجازه الأرفع كان مجلة الآداب ثم دار الآداب .

أنا والآداب وُلدنا معًا في سنة ١٩٥٣. وعلى يديْ سهيل إدريس قرأنا سارتر وكامو ودوراس وغارودي ودوبريه، علاوةً على كبار شعراء الحداثة في الشعر العربي. وفي الآداب تعلّمنا كيف نقرأ قصيدةً، وكيف ننتقد كتابًا، وكيف نتذوّق مسرحية. غير أنّ سهيل إدريس علّمنا، في جملة فضائله، الجرأةَ والشجاعةَ والتمرد. فمنذ بداياته نزع العمّة عن رأسه، وخلع الجبّةَ عن جسده، وأَطْلق الاثنين معًا، أيْ رأسَه وجسدَه، في معمعان هذا العالم المضطرب طلبًا للحرية. وحينما كانت روايةُ نجيب محفوظ **أولاد حارتنا** يتيمةً تجول باحثةً عمّن ينشرها على الناس، تصدّى سهيل إدريس لهذه المهمة ونَشَرَها. إنّه سهيل إدريس، ابنُ مدينة بيروت، الذي تمرّد على بيئته الدينية المحافظة، وقَطَعَ شوطَه الشائكَ من الخندق الغميق إلى السوربون، وهي المسافة التي تَفْصل الجمودَ والركودَ عن النهضة والحداثة والتقدم.

كان والدُه إمامَ مسجد، وهو بنفسه درَس العلومَ الشرعيةَ وارتدى الجبّةَ والعمّة. وزوجتُه عائدة مطرجي هي ابنةُ مفتي زحلة والبقاع. ومع ذلك صار تقدميّاً وعلمانيّاً معًا. إنّها رحلةٌ متلاطمةٌ في خضمّ هذا العياء العربي، شرع فيها سهيل إدريس غيرَ هيّاب، فكان كوكبًا حقيقيّاً في هذا السواد العربي الكبير، وكان علمًا إلى جانب الأعلام الذين عمل معهم أو الأعلام الذين صنعهم. فقد كان جزءًا من جيلٍ رائدٍ لمع فيه عبد الله المشنوق ومحيي الدين النصولي وسعيد فريْحة وفؤاد حبشي وتوفيق يوسف عوّاد وألبير أديب في الصحافة، وخليل الجرّ ورئيف خوري وحسين مروّة ونزار قبّاني وأدونيس في الشعر والأدب، وقسطنطين زريق وجوزف مغيْزل ومنير بعلبكي وجبّور عبد النّور في الفكر والمعاجم. وبين هؤلاء كان سهيل إدريس ركنًا أساسيّاً.

الرجلُ القصيرُ القامة صَنع بيديه قاماتٍ عاليةً، وكان نخيلُه باسقًا جدّاً، والرطبُ الذي جناه الأدبُ والشعرُ كان طيبًا حقّاً. هذا هو سهيل إدريس الذي غادرنا بحسرة، لكنه ترك فينا أمثولةً عن رجلٍ مبدعٍ وشجاعٍ وزارعٍ للبذور وحاصدٍ للحنطة، والذي فاق «كشاجم الرملي» في إبداعه مرتين.

جريدة القدس العربي، ٢٧ شباط ٢٠٠٨، من تحقيق أجراه ناظم السيد

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

سهيل إدريس مفرد بصيغة الجمع

حسين بن حمزة

برحيل صاحب **الحيّ اللاتيني** تنطوي إحدى الصفحات الأخيرة في السجلّ الذهبي لجيلٍ ومرحلة: جيلِ المؤسّسين الذي تَرك بصماتِه على مرحلةٍ خصبةٍ من التاريخ العربي الحديث. انسحب سهيل إدريس رافضًا أن يَشهد على هزيمة مشروعه، وانحسار القيم التي آمن بها ووهبها حياتَه. مع سهيل إدريس (١٩٢٥ـ ٢٠٠٨)، يأفل أحدُ آخر نجوم حقبة أدبية وثقافية عربية كاملة. معظمُ أقران إدريس ومجايليه سبقوه إلى الغياب، والباقون على قاب قوسين أو أدنى: ذلك الرعيلُ من الأدباء والمفكّرين والصحافيين الذين يدينون، قبل كلّ شيء، لعصاميتهم وانكبابهم الجدّي والعميق على تعزيز مواهبهم وتطويرها عبر التفاعل مع ما سبق من تراثٍ عربي، وما هو راهنٌ من آدابٍ أجنبيةٍ تمرِّر هواءً مختلفًا إلى رئة الثقافة العربية.

كتب سهيل إدريس القصةَ والروايةَ والمقالةَ والدراسةَ النقديةَ والسيرةَ الذاتية. تَرجم أعمالاً عدةً عن الفرنسية. أنشأ مجلةَ الآداب، وأضاف إليها دارَ نشرٍ بالاسم نفسه. خاض معاركَ ثقافيةً لا تُحصى، كانت أشهرها تلك التي دارت بين الآداب ومجلة **شعر**، ثم مجلة **حوار**. أمضى سنوات في تأليف **المنهل الفرنسي والمنهل العربي**.

التنوع والموسوعية وتعدّدُ المواهب والاهتمامات كانت سمةً من سمات ذلك الجيل. وسهيل إدريس لم يتأخّر في ابتكار سمات مشابهة ظلت ملازمةً وملتصقةً باسمه. لم يكن قاصّاً فقط، ولا روائيّاً فقط، ولا ناقدًا فقط، ولا مترجمًا فقط. كان مؤسسةً ثقافيةً بكاملها. بل هو أحدُ قادة الثقافة وروّادها في النصف الثاني من القرن العشرين. كان كاتبًا وصانعًا للكتّاب. اشتغل عند نفسه كاتبًا، وفتح صفحاتِ الآداب لولادة مئات الكتّاب من شتّى أنحاء الوطن العربي. كانت مجلّة الآداب تَمنح جوازاتِ مرور إلى عالم الأدب، ولاحقًا إلى عالم الشهرة. كان مجردُ ظهور اسمٍ فيها علامةً على الموهبة والجدارة. وكثيرون نَقلتْ إليهم الآداب لوثةَ الكتابة، وقَدّمتْ لهم شهاداتِ ميلاد.

لعلّ صفةَ «صاحب الآداب» (المجلة ودار النشر) هي الأكثرُ انطباقًا على سهيل إدريس. لقد صنعت الآداب جزءًا كبيرًا من حضوره وشهرته؛ لكنّها، في الوقت عينه، صَنعتْ حضورًا وشهرةً لأجيال من الأدباء والمثقفين العرب. الأرجح أنّ شيئًا كهذا لم يحدثْ إلاّ نادرًا في تاريخ الأدب الحديث: أن يستحوذَ أحدٌ ما على صفة كاتبٍ وصانع كتّابٍ في آن. فقد وَرّط سهيل إدريس كثيرين في عالم الأدب وغَيَّر حياتَهم. وستظلّ أعناقُ هؤلاء مطوَّقةً بديونه عليهم. لكنه لن يطالِبَ بهاً يومًا. ولذا، فإنّ غياب سهيل إدريس اليوم لن يكون رحيلَ كاتبٍ بمفرده؛ إنّه رحيلُ «مفردٍ بصيغة الجمع»: ففي ثنايا هذا الرحيل، ثمة حكاياتٌ وقصصٌ كثيرةٌ سيتناوب كثيرون على استعادتها وسردها. سيحرّك غيابُه ذكرياتٍ شخصيةً كثيرةً في مخيّلة الكتّاب الذين استقبلتْهم مجلتُه. سيعود الذين ظلّوا أحياءً منهم إلى لحظات «عمادتهم،» وحصولِهم على الاعتراف فيها، ثم انطلاقِهم منها إلى طموحاتٍ نصيةٍ ونبراتٍ خاصةٍ بلا عدد.

لا بدّ من أنّ الآداب تتقدّم على منجَزات سهيل إدريس كلِّها، إنْ لم تكن قد غطّت على حضوره كاتبًا وروائيّاً. فهي في نظر كثيرين الأثرُ الذي سيخلِّد اسمَه أكثرَ من أيّ عملٍ آخر. ولكنّ سطوة الآداب ونفوذها الرمزي والتاريخي الواسع لا ينبغي أن يطمسا السيرةَ الأدبية والثقافية الذاتية لصاحبها. فلنتذكّرْ سهيل إدريس الشابَّ الذي تخرّج في الكليّة الشرعية، ثم اضطرتْه ميولُه المدنيةُ وطموحاتُه التأليفيةُ المبكرة إلى التخلّي عن جبّة رجل الدين. لنتذكّرْ ترجماتِه لسارتر وكامو، وتبنّي «دار الآداب» لنشر الكثير من المؤلَّفات الوجودية. لنتذكّرْ جرأتَه حين أصدر الجزءَ الأولَ من سيرته الذاتية، وكَشف فيها شذوذَ والده. لنتذكّرْ أنّه أحدُ روّاد الرواية الحديثة في لبنان والعالم العربي، وأنّ روايته الأشهر **الحيّ اللاتيني** أَسهمتْ مع روايات **أديب** لطه حسين و**عصفور من الشرق** لتوفيق الحكيم و**قنديل أمّ هاشم** ليحيى حقي و**موسم الهجرة إلى الشمال** للطيّب صالح.. وغيرها، في سرد العلاقة الشائكة والملتبسة بين الشرق والغرب والفجوة الحضارية بينهما، وهو الموضوع الذي احتلّ حيّزًا مهمّاً في المشهد الروائي والنقدي العربي.

دافع سهيل إدريس، بشراسةٍ وحسٍّ مبدئيّ، عن أفكاره وآرائه. فَعَلَ ذلك في شبابه، وواصل ذلك في كهولته وشيخوخته. في حوار أجريناه معه قبل سنوات في مجلّة **زوايا** (العدد ١١/١٠)، أصرّ على رفض «قصيدة النثر» التي لم ينشرْها في الآداب طوال فترة تولّيه رئاسةَ التحرير،* رغم اعترافه برواجها الواسع وإقبال الأجيال الشابة على كتابتها. وأصرّ على صوابية قراره برفض رواية محمد شكري الشهيرة **الخبز الحافي**، رغم نجاحها النقدي والتجاري وترجماتها المتعددة: فقد ظلّ على قناعته بأنها روايةٌ غيرُ متكاملة، وأنّ نبرتها الجريئة والفضائحية لا يسعها أن تَشْفع للترهّل الروائي الذي فيها.

كان سهيل إدريس ابنًا بارّاً لزمنه، صانعًا له وشاهدًا عليه. ظلّ قوميّاً عروبيّاً حتى حين سَقطت الأحلامُ الكبرى وانهزمت الإيديولوجيات. وها هو يرحل مورِّثًا ابنَه وابنتيْه التركةَ نفسَها.

جريدة الأخبار، ٢٠٠٨/٢/٢٠

---

* ـ والصواب أنّه نَشَر عددًا من هذه القصائد (لجبرا والماغوط...)، ولكنّه لم يُسَمِّها كذلك. (الآداب)

مع عايدة ونزار وبلقيس وبهيج عثمان وزوجته صدوف كمال

ماذا علّمني سهيل إدريس — عناية جابر

الكتابة في رثاء راحلٍ كسهيل إدريس تحمل عندي تعبيراتٍ ذاتيةً وموضوعيةً، أو مزاجًا مؤتلفًا ما بين الذاتي والموضوعي، على علاقةٍ بتتلمذي على إصدارات الأديب إدريس الأب في الرواية وترجمتها. وتفتُّحُ شغفي على عالم القراءة وشيجُ الصلة بهذا الرجل ونتاجه، ونتاج داره، زوجةً وأبناء. إنّه رثاءٌ تتنازعه حالان: تاريخُ إدريس في العطاء الثقافي، ورفدُ البلد بالكامل. حالةٌ إبداعية مشرقة؛ وحالةٌ داخليةٌ تكمن في أعمق اعماقي وتؤْمن إيمانًا راسخًا بأنّ دار الآداب في نتاجاتها المتنوعة هي النافذةُ الأولى، والبداهةُ الأولى، والاكتشافُ العبقري ـ بالنسبة إليّ ـ للعالم عبر كتّابه، عربًا وأجانب.

تبقى الدارُ بالطبع، رغم كلّ المعوّقات ورغم غياب كبيرها، عبر عايدة ورنا وسماح. سوى أنّني أسطّر عاطفةً سيّالةً، غامضةً، لرجلٍ منحني، في بداية تعلّقي بالكلمات، شيئًا من روح العصر في احتضانه لكتاباتِ كبارٍ في الغرب، وتقديمِها لنا على طبقٍ من ذَهَبِ ترجمته. لا أرثيه، بل أؤكّد حزنًا صافيًا، حزنَ الخسارات الكبيرة.

أنا متأكّدة من أنّ بعضًا من معنى بيروت كان موجودًا في سهيل إدريس، ورَحَلَ برحيله. إنّ نموذجًا ثقافيًاً وإبداعيًاً كداره يظلّ بالنسبة إليّ ملهمًا، ربما لأنّه بدايةُ الأشياء عندي، وربما لأنّ سهيل إدريس بنهجه المعروف، شخصًا ودارَ نشر، يصوِّب ما يختلّ بي بفعل الوقت الصعب، ويدلّني دائمًا على ذاتي الحقيقية التي لا تَقْبل الزيفَ.

إنّ ما أعجبني في سهيل إدريس ليس الجانبَ الريادي في عمله وفي إصدارات داره فحسب، بل أيضًا طريقته العنيدة في قولِ ما يَعتقد، وفي تحفيزنا قدرَ إمكانه على قول الحقيقة بأكثر الطرق ثباتًا وجاذبيةً في آن. لديه ذلك الملمحُ من النصح الأبويّ إنْ صحّ التعبير، في الحفاظ على هويتنا ومعتقداتنا العربية: النصح الذي اعتدنا أن نسمعَه من آبائنا، ومن كتّابٍ على قدرات هائلة في نقل تراثهم وحضارتهم ومعتقدهم بلغتهم الصحيحة التي تُثري تراثَهم وحضارتَهم وانتماءهم. الراحل سهيل إدريس، وإنْ كان أمينًا لعروبته، خاض مغامراتٍ عظيمةً في التجارب الإنسانية في أكثر من بلدٍ أجنبي، ناقلاً، بسعةِ اطّلاعه ووفرةِ علمه ولغته الفرنسية الفاخرة، نتاجاتٍ غربيةً تمتلك فكرًا دقيقًا وعقلاً حادّاً وإبداعًا، لتأكيد انفتاحه على ثقافات العالم، ومواكبتها، ومعرفتها بشكلٍ علميّ وحسّاس، مع التجذّر في آنٍ في هويته، نافخًا فيها روحَها الشمولية.

يستحقّ إدريس حِدادًا لبنانيًاً عامّاً على مستوى الثقافة والإبداع، ووقفةَ تأمُّلٍ في ما ننحدر إليه جميعًا من اختلاط الدروب والمسالك.

جريدة السفير، ٢٠٠٨/٢/٢٧

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

سهيل إدريس أيضًا

يوسف ضمرة

مصادفةٌ غريبةٌ تلك التي جمعتْ هذين العَلَمَيْن الكبيريْن، سهيل إدريس وألان روب غرييه: تشابهٌ في الحياة الأدبية، وتزامنٌ في الموت، وعمرٌ واحدٌ امتدّ خمسًا وثمانين سنةً مع غرييه، وثلاثًا وثمانين مع سهيل إدريس.

سهيل إدريس أعلن الحربَ على السائد والنمطي في الرواية العربية الممزوجة بالسيرة الذاتية، كتلك التي كتبها طه حسين مثلاً في **الأيام** وتوفيق الحكيم في **عصفور من الشرق**. فجاءت روايتُه **الحيّ اللاتيني** أكثرَ من جريئة وصادمة ومفاجئة، في عالمٍ كانت المعاييرُ الأخلاقية تتحكّم في أدبه وكتابته وإبداعه. أما ألان روب غرييه فأعلن حربًا على التراث الروائي البلزاكي، وصَدَمَ الفرنسيّين، وظلّ كذلك حتى وفاته.

سهيل إدريس كان رائدًا في الكتابة، وفي التجديد، وفي المشروعات التي تَعْجز المؤسّساتُ عنها، كمجلة الآداب ودار الآداب ومعجم **المنهل** الفرنسي ـ العربي. وألان روب غرييه كان رائدًا في حَرْفِ الرواية الفرنسية عن مسارها الكلاسيكي الطويل، نحو رواية جديدة، سُمّيت «اللارواية» حينًا، و«رواية الضدّ» أو «ضدّ الرواية» حينًا آخر. وقاد مجموعةً من الكتّاب على رأسهم كلود سيمون ومارغريت دوراس ونتالي ساروت.

سهيل إدريس وَجَدَ في سارتر وألبير كامو ما يعينه على مواجهة الكتّاب والمثقفين الماركسيين العرب. ووجد ألان روب غرييه في هؤلاء الروحَ الفرديةَ التي شكّلتْ عصبَ الرواية الجديدة. ولكنْ يبقى أنّ سهيل إدريس شكّل لنا، نحن القرّاء والكتّاب على حدّ سواء، ملاذًا ثريّاً لا يمكن أن يتجاهلَه أحدٌ أو يقفزَ عنه في المشهد الثقافي العربي منذ عام ١٩٥٣، حين أسّس مجلةَ الآداب الشهيرة، التي من بين صفحاتها تخرّج العديدُ من الكتّاب والأدباء والشعراء العرب، وكانت بمثابة لجنة تحكيم على درجةٍ عاليةٍ من النزاهة والموضوعية، أو بمثابة أكاديميةٍ ذاتِ تقاليد عريقة في التعاطي مع الأدب والكتابة. ثم جاءت دارُ الآداب سنة ١٩٥٦ لتكمل تشييدَ هذه الأكاديمية الأدبية الرفيعة، وتخوض حروبًا عدة، كانت أبرزها ضدّ مجلة **شعر** برموزها الكبرى. ولكنّ المفارقة الأكبر هي أنّ المجلة التي خاضت معركتَها تلك، ونجحتْ في استقطاب العدد الأكبر من الكتّاب والمبدعين العرب، تودّع صاحبَها من خلال معركةٍ أشدّ ضراوةً: فهي تتعرّض الآن إلى هجمة شرسة من الخصوم أنفسِهم، أو من رفاقهم، وكأنّ سهيل إدريس كان يعي منذ الخمسينات هذا الخطرَ الذي تُمثّله هذه الجماعاتُ في تقلّباتها وانتماءاتها الملتبسة.

يرحل سهيل إدريس، لكنه يترك خلفه جيشًا ممن تربّى ونشأ في مدرسة الآداب العربية، مجلةً ودارَ نشر. يرحل سهيل إدريس ومجلتُه ودارُه في يدين جديدتين شابتين، لكنهما قويتان. وهو ما نراه في الدكتور سماح إدريس. ولعلّ هذا الصمود الذي يبديه الابنُ يذكّرنا بالصمود الذي اجترحه الأبُ الراحل حين أسّس مجلته شابّاً صغيرًا، لم يكن معروفًا كما ينبغي، وفي أصغرِ بلدٍ عربي... بينما كانت مصرُ آنذاك تضجّ بالأسماء الكبرى، وتعيش حالاً ثقافيةً صاعدةً تَصْعب مجاراتُها أو محاكاتها.

جريدة الإمارات اليوم، ٢٤ شباط ٢٠٠٨

سهيل إدريس ثائر من أجل التراث

هشام نشّابة

يَفقد الأدبُ العربي، كما لبنانُ والوطنُ العربي، علمًا من أعلامه، ورائدًا فكريّاً قلّ نظيرُه. وتَفقد بيروتُ أحدَ أبرز أبنائها. ويَفقد زملاؤه وأصدقاؤه، كما عائلتُه، أخًا عزيزًا لا أغلى ولا أعزّ.

يقترن اسمُ سهيل إدريس أكثرَ ما يقترن بكتبه الروائية: **الخندق العميق**، **والحيّ اللاتيني**، و**أصابعنا التي تحترق**. ويقترن كذلك بمقالاته في الأدب والفكر القومي عمومًا.

كما يقترن اسمُه بمجلة الآداب التي مثّلتْ، منذ ظهورها في الخمسينيات من القرن الماضي، منبرًا فكريّاً رفيعًا للأدباء العرب وشعرائهم المجدِّدين. إنّ فضلَ الآداب على هؤلاء وأولئك عظيم: فلولاها لما عَرفتْ ساحاتُ الأدب في بلاد العرب الكثيرَ من الأسماء التي لمعتْ في مجالات الفكر القومي، والشعرِ الملتزم، والقصةِ القصيرة الهادفة. ولو ذَكَرْنا هنا بعضَ المفكّرين والأدباء الذين تعرّفنا عليهم عبر الآداب لفاتنا حتمًا العديدُ غيرُهم ممن لا يجوز أن تُغفَلَ أسماؤهم عند ذِكر أعلام المفكّرين والمبدعين العرب في العصر الحديث. ولا تزال الآداب إلى يومنا هذا، وبحرصٍ لافتٍ من الأستاذ سماح إدريس، المنبرَ الحرَّ والملتزمَ في آن، للأقلام الواعدة. ولا تزال الآداب المجلةَ

مع أحمد أبو سعد وميشال عاصي وحبيب صادق وآخرين

ذاتَ القضية: قضيةِ اللغة العربية، والحريةِ، والدفاعِ بجرأةٍ عن قضايا العرب في شتّى المجالات. إنّها غرسةٌ طيبةٌ غرسها سهيل إدريس لا تزال تُغْني الفكرَ والأدبَ العربيْن بنتاجٍ ثمين... بلَ إنها «الصدقة الجارية» التي تبقى مع الباقيات الصالحات، ليَنْعم بسخاءِ إنتاجِها كلُّ محبٍّ للغة العربية، وكلُّ مؤمنٍ برسالة الأدب والفكر الحرّ. رحم الله تعالى الدكتور سهيل إدريس وأسكنه فسيح جناته، جزاءً مستحَقّاً لمجاهدٍ عظيم، ومناضلٍ دؤوب، استمرّ فضلُه سحابةَ نصف قرنٍ أو يزيد.

أكتب هذه السطور للتعبير عن حزني بوفاة الدكتور سهيل إدريس، ولتعزية السيدة الأديبة عايدة مطرجي إدريس، رفيقةِ حياته ومسيرته الفكرية، وابنه الأديب المناضل الأستاذ سماح، وسائر أفراد العائلة. أكتب لأتذكّر شقيقة الدكتور سهيل المرحومة وجيهة، وقد عملنا معًا في «المقاصد» مدةً طويلة. أكتب لتعزية الإخوة الزملاء في مركز دراسات الوحدة العربية، وكلِّ كاتبٍ وأديبٍ عربي؛ فهؤلاء كلُّهم أسرةُ الدكتور سهيل إدريس. وأكتب لأنّني مقاصديٌّ عرفتُ الدكتور سهيل غداةَ عودته من باريس ليتولّى بجزء من وقته تدريسَ النصوص الأدبية والترجمة في صفوف البكالوريا في كليّة المقاصد الإسلامية في بيروت، قبل أن ينصرف إلى التدريس في الجامعة.

غير أنّني أكتب أيضًا لأطرحَ قضيةً يمثّل الدكتور سهيل إدريس بُعدًا بارزًا من أبعادها، وهي قضيةُ الريادة والتحرر والتجدد في الفكر وعلاقتها بوعي التراث وأهميته. فسهيل إدريس رائد، ومجدِّدٌ ومبدعٌ في كتاباته، بل هو ثائرٌ أحيانًا؛ ولكنّه، في الوقت ذاته متجذّر بتراثه العربي، حريصٌ كلَّ الحرص على هذا التراث، ضنينٌ به من أن يبُتذل أو يضيَّعَ أو يسفَّهَ بدعوى أنّ التحرر والتجدد والريادة تقتضي إهمالَ التراث أو الاستخفافَ به.

لقد كان الدكتور سهيل ثائرًا من أجل التراث، لا على التراث، ولا ضدّ التراث. وهذا موقفٌ يستحقّ من الدارسين عنايةً خاصةً في أيامنا هذه. فإذا كان بعضُ الباحثين يعكف اليوم على إعداد الدراسات والرسائل الجامعية عن مجلة الآداب، فإنّ هذه الدراسات والرسائل تكتسب أهميةً إضافيةً إنْ هي خصّت الدكتور سهيل إدريس بدراسة موقعه من مفهوم الريادة، والتجديد، والثورة.

إنّ نشأة الدكتور سهيل في أزهر لبنان لم تحُلْ دون متابعة دراسته في باريس، بل لعلّ هذه الدراسة الشرعية هي التي دفعتْه إلى طلب العلم في فرنسا والتعرّفِ إلى كبار أدبائها من أمثال سارتر ودوبوڤوار وجيد. كما انّ هذه الدراسة هي التي جعلته يعود إلى وطنه ليكتب، بلغة عربية بليغة وأنيقة، روائعَ في الأدب العربي، وليحثَّ كلَّ عربي على الغوص في تراثه ليستنبطَ منه مكامنَ التجديد والإبداع، وليغرسَ في بيئته المحافظة بذورَ نهضةٍ أدبيةٍ مستقبليةِ الرؤية والطموح.

لقد أحببنا الدكتور سهيل إدريس مبدعًا، عربيّاً، وثائرًا. وها نحن اليوم نحبّه أكثرَ، من أجل ذلك كلِّه، بعد وفاته.

جريدة السفير، ٢٠٠٨/٢/٢٣

دكتور إدريس، مستر سهيل ——— جاك الأسود

كنتُ على مقاعد المدرسة حين عرفتُه كما يَعرف طالبٌ غيرُ محدَّدِ الانتماء كاتبًا في دائرة الضوء، يُرَغِّبُ في قراءته تحريم مبطّن.

أما دائرةُ الضوء فكانت لأديبٍ متأنّقٍ يمكن أن يُنعت بـ «الداندي.» تحبُّه شاشةُ التلفزيون، حين كانت فضّيّةً مع شرائطَ متدرِّجةِ الإضاءة تعلن أنّها بالألوان الطبيعية سيكام. ويُظهر نظامُ الألوان الفرنسي (شبهُ المفقود الآن) دكتورًا فرنسيَّ الشهادة، فرنسيَّ الشاربيْن، يَنْطق بعربيةٍ فصحى لا غبارَ عليها، معبِّرًا عن انفتاحٍ «حداثي،» ـ الأمرُ الذي يثير في عقليةِ مَنْ جَرَفَتْه تياراتُ الاحتجاج بعد أيار ١٩٦٨، بما فيها من كرهٍ للأنظمة السائدة وألقابها ونوعٍ من الاضطهاد الغاشم للأكبر سنّاً، بلبلةً كافيةً لتحفيز حبّ الاطّلاع.

وأما التحريم فسنَسْتشعر بأنّه كان مبطّنًا عن جهل. كانت ذكرى تحريم جبران لأفكاره اللاإكليريكية من أثارات الماضي. وقد بقي منها خلافٌ على الأسلوب: بين مشجِّعٍ من المعلّمين يرى في فخر الأدب اللبناني مثلاً أعلى تَصْعب مجاراتُه، وعقلانيٍّ يرى في الموارباتِ الاستعارية تغطيةً لعجز المتعلِّم عن تسمية الأشياء بأسمائها. وصاحبُ **الحيّ اللاتيني** متوازنُ الجملة، مهذَّبُها كشاربيْه، يخالف السائدَ بلغة السائد، وتحيط به من بعيدٍ هالةُ الوجودية، التي فُهِمتْ آنذاك كظاهرةٍ اجتماعيةٍ مشبَّهةٍ بالهيبية أو «الخَنْفَسَة» كما كان يقال. هكذا قرأنا «ثلاثيّته» خصوصًا بنوعٍ من الشعور بالتفوّق على معلّمين يَمْنعون قراءةَ بعض توفيق يوسف عوّاد أحيانًا لمشاهده الجنسية «الجريئة،» ولا يجدون «مَمْسكًا» من أيّ نوعٍ على «هدّامٍ» عاقلٍ مثل سهيل إدريس، كالأجسام الطائرة غير المحدّدة.

وحين اكتشفتُ الشعرَ والنقدَ والفنون، أحسستُ بأنّ كلّ شيءٍ يُبْعدني عنه. وصورةُ ممثِّله في الرواية السيرية **الحيّ اللاتيني**، متجاهلاً لوكوربوزييه لأنّ العمارةَ بالنسبة إليه تنتمي فقط إلى عالم الأرقام المخالِفِ لطبع الأديب، لازالت تَصْدمني كموقفٍ ساذجٍ أستغرب كيف استطاع الدكتور إدريس الخروجَ من المراهقة ولم يستدركْه في الطبعاتِ الكثيرةِ اللاحقة. ومع ذلك أحفظ درسًا ثمينًا من موقفين نقديين له، كلاهما على علاقةٍ بصديقه نزار قبّاني.

عروبتُه، بل ناصريتُه، لم تمنعْه بشهادة نزار قبّاني من تقبُّل قصيدة الأخير، «بعد النكسة،» بشيءٍ من الترفّع عن جرحٍ قوميّ اتَّخَذَ عنده بعدًا شخصيّاً، بل جسديّاً. أدمَعَ للجرح، ولكنْ أيّد قولَ الحقيقة الجارحة. وعلى نمطٍ أخفّ، لم تمنعْه الصداقةُ من ترجَمة قصيدة لجاك بريڤير يَنْقلها منظومةً نزار قبّاني نفسُه، بلا إشارةٍ إلى المصدر، في أحد دواوينه. نِسبتُها في **الحيّ اللاتيني** إلى فتاةٍ تُوهِم بطلَ الرواية بالعشق وتُنْشده القصيدةَ، مدّعيةً تأليفَها قبل أن تَسْرق نقودَه وتهرب، تُعْطي إدانةَ السرقة الأدبية نكهةً يَعْجز عن إعطائها أيُّ مقالٍ نقديّ. وظلّ أبو سماح فوق العداوة، الأدبيةِ أو السياسية، لأنّه قلّما سَمَح للسجالات، الّتي خاض كثيرًا منها، بأن تأخذ منحًى شخصيّاً.

هكذا كان بعضُ النقّاد والقرّاء عمومًا يَنْسب اختباءه وراء ضمير الغائب في «ثلاثيّته»، الأشبهِ بسيرةٍ ذاتيةٍ، إمّا إلى الكره الكلاسيكي للأنا، وإمّا إلى خفرٍ لم يستطع تجاوزَه، وإمّا إلى خليطٍ من الاثنين. وحين كنتُ أسأله عن حقيقةِ بعض الأحداث في «ثلاثيّته» المذكورة وتتمّتها، كان يجيبني، مسمّيًا الأشخاصَ الحقيقيين وراء شخصياته، ولكنْ دائمًا مع استعمال ضمير الغائب للإشارة إلى بطله الذي لم يخفَ على أحد، منذ البداية، أنّه يمثِّله شخصيّاً.

وأخيرا «طقّ شرشُ الحياء» في مذكّراته التي صدر الجزءُ الأول منها تحت عنوان **ذكريات الأدب والحب** سنة ٢٠٠٥، وربما انتظر الجزءُ الثاني موتَه وموتَ المعنيّين ليجد طريقَه إلى النشر. فعرفنا أنّ ما فَرَضَ عليه الاختباءَ وراء ضمير الغائب ليس كرهَ الأنا، ولا الخجلَ، بل تطلُّبٌ للحقيقة، التي تكون كاملةً أو لا تكون. تطلُّبٌ نادرٌ في آدابنا عامةً، وباعتبار كلفته المعنوية، منقطعُ النظير.

وعرفتُه عن قربٍ حين عملتُ معه، منذ ١٩٩٦، على الجزء العربي ـ الفرنسي من مشروعه البينيدكتي لأكملِ معجمٍ عربي. فلمستُ كيف يُمْكن الطموحَ الأكثرَ جنونًا لإنسانٍ يشقّ طريقًا يَعْرف أنّها أطولُ من حياته، أن يُبقي في نفسه مكانًا للتواضع. ولمستُ من تصرفاته اليومية أنّ وراء نجاحاته «موهبةً إنسانيةً» غنية.

...

حين كُشِفَ لنا عن وجهه في التربة لإلقاء نظرةٍ أخيرة، بعد سماع تأبينيْن بليغيْن من نقيبَي الصحافة والمحرِّرين، عدّدا فيهما مناقبَ الفقيد ودورَه التاريخي كأديبٍ وصحافي أدبي وناشرٍ ومعجمي، كان حجمُ الرسالة التي يَرِثُها ابنُه الدكتور سماح هو الذي أنطقه بهذا الوعد المتهيِّب: «رَحْ جرِّبْ كفِّي» [سأحاول الاستمرار]. من هذه الناحية، ربما قال له كثيرون، مع أخذِ تغيُّر الظروف بعين الاعتبار، إنّه، منذ الآن، «مكفّي وموفّي.» إرث الدكتور إدريس أسهلُ حملاً من إرث السيد سهيل.

جريدة المستقبل، ٢٠٠٨/٢/٢٤

مع نزار وغادة السمّان وعايدة

سهيل إدريس: صانع الكتّاب

عوّاد علي

كان الراحل سهيل إدريس يَجمع بين صفتين قلّما اجتمعتا في شخصية واحدة من المثقفين العرب، هما: صفةُ «الكاتب» المتعدّد المواهب، وصفةُ «صانع الكتّاب» على حدّ تعبير شاعرٍ عربي. وينبغي ألاّ تُفهم صفةُ «صانع» هنا بمعناها الحرفي (فلا أحد يستطيع أن يَصنع من شخصٍ ما كاتبًا كما تُصنع أيُّ سلعة)، بل بدلالتها المجازية، أيْ بمعنى «حاضن» أو «آخذ بيد» أو «متبنٍّ.» وأرى أنّ هذه الصفة، التي تَميّز بها إدريس، تستحقّ ان نقف عندها أكثرَ من صفة الـ «كاتب»: ذلك لأنّ مَن يَكتب كتابًا واحدًا أو عشرين كتابًا، وخاصةً حينما تُنشر أو تُطبع، من البديهي أن يسمّى «كاتبًا،» بصرف النظر عن القيمة المعرفية والأدبية لما كتب، وهذه هي الصفة أو التسمية التي نُطْلقها اليومَ على آلاف البشر الذين تمتلئ المكتباتُ ومواقعُ الإنترنت بمؤلَّفاتهم، سواء أكانت عظيمة أمْ هزيلة. أما أن يكون المرء «صانعَ كتّاب،» بالمعنى المجازي الذي ذكرتُه، فهو عملةٌ نادرة.

في ثمانينيات القرن الماضي كنّا ـ بضعة كتّاب عراقيين ـ نشير إلى صديقنا الشاعر العراقي الراحل جان دمو بكونه «محرِّضًا على الإبداع» أكثرَ من كونه «مبدعًا» لأنّ «ذائقته،» التي هذّبتْها قراءاتُه المبكرةُ، كانت أرفعَ من «قصائده» النثرية القليلة التي قتلتْها صعلكتُه وإدمانُه في مرحلة لاحقة. وقد كان تأثيرُه علينا شبيهًا بتأثير سهيل إدريس على عدد غير قليل من جيل الخمسينيات والستينيات في الأدب العربي، مع فارقٍ أساسي: وهو أنّ سهيل إدريس كان مبدعًا كبيرًا وحاضنًا لأسماء واعدةٍ بالإبداع، من خلال نشرها، في الوقت ذاته. ولا يوجد أديبٌ عربي من بين الأدباء الذين احتضنَهم، في إطار بحثه عن أجيال أدبية جديدة ومدِّ يد العون لها، يستطيع أن يُنْكر فضلَه عليه في تقديمه إلى الحياة الثقافية. وقد أشار إلى هذا الفضل أدباء كثيرون في مناسبات مختلفة، منهم: صلاح عبد الصبور، ورجاء النقّاش، وأحمد عبد المعطي حجازي، وأمل دنقل، وجابر عصفور، وجمال الغيطاني، وفؤاد التكرلي، وزكريّا تامر، وسعد الله ونّوس، وأبو المعاطي أبو النجا، وسليمان فيّاض، ومحيي الدين محمد، وإبراهيم أصلان، وغيرُهم. والمعروف أنّ أَخْذَ سهيل إدريس بيدِ بعضٍ من هؤلاء الأدباء، وآخرين ظهروا بعدهم، لم يقتصرْ على نشر نتاجاتهم في مجلة الآداب، بل تعدّاها إلى نشر كتبهم الأولى في دار الآداب، مغامرًا ومراهنًا على مواهبهم الإبداعية، كما هو الحال، مثلاً، مع الديوان الأول للشاعريْن صلاح عبد الصبور وأمل دنقل، والكتاب الأول للناقد رجاء النقّاش (كان في الثالثة والعشرين من عمره)، والروايةِ الأولى لكلٍّ من: إبراهيم أصلان، وزيد مطيع دماج، وعدنيّة شبلي، وإبراهيم بادي، والمجموعةِ القصصية الأولى لليلى العثمان.. إلخ.

لقد كان ـ ولا يزال ـ مشروعُ الآداب، الذي صنعه سهيل إدريس، واحتضن من خلاله أجيالاً من الشعراء والقصّاصين والروائيين والنقّاد العرب، من أهمّ المشاريع الثقافية في العالم العربي. ففي الخمسينيات والستينيات كانت المجلةُ النافذةَ الكبرى التي يُطلّ منها القرّاءُ العربُ على التيارات الأدبية الجديدة في الغرب، وهي المطبوعةُ الأبرز التي «تبلورتْ فيها كلُّ التيارات الجديدة في الأدب العربي،»

كما قال الروائي بهاء طاهر. ولولا احتضانُ سهيل إدريس هذه التيارات «لتأخَّرَ ظهورُها مدةً لا تقلّ عن عشر سنوات أو عشرين سنة،» كما قال رجاء النقّاش؛ وهذا ما كان سوف يُضْعفها، ويجعلها محدودةَ التأثير، ويُفْقدها حيويتَها وقيمتَها الحقيقية. واليوم، ينظر الكثيرون ـ قرّاءً ونقادًا ـ إلى أيّ عمل أدبي أو فكري يَحْمل على غلافه شعارَ دار الآداب بعين الاحترام والتقدير حتى **قبل** أن يقرأه؛ ومَن منّا لا يَطْمح إلى نشر مخطوطاته في هذه الدار العريقة، التي تراهن على الإبداع النوعي والجديد والمختلف؟

موقع إيلاف، ٢٠٠٨/٢/٢١

لم يشربْ من المياه العنصرية ـــــــ فاروق حجّي مصطفى

في البداية لا أستطيع إلاّ أن أؤكّد أنّ غياب الأديب والروائي والناشر د. سهيل إدريس يشكّل خسارةً كبيرةً في المشهد الثقافي والأدبي العربي والشرق الأوسطي. فهذا الروائي (وربما الوحيد) فتح بابَ داره لإبداعات الشباب، وكان يحلم بأن يؤسّس شيئًا للطفولة العربية نفتقده اليومَ بلمحة البصر. إنه خسارة كبيرة. وإلى جانب اهتماماته الأدبية والثقافية كان يفكّر بتنوع الثقافي في المنطقة العربية. وعندما طرحتُ عليه أن يفتحَ بابَ مجلته الآداب اللبنانية لعرض صورة هذه الثقافات، لم يبخلْ هو وابنُه الدكتور سماح إدريس بذلك. شجّع ابنَه سماح على أن يطوِّر مجلتَه التي كانت مدرسةً فعليةً لأجيال الثقافة العربية. كل العواصم العربية، من القاهرة إلى بغداد، مرورًا بدمشق وعواصم المغرب العربي، كانت تستجدّ ثقافاتُها مع المواضيع الثقافية العربية التي تنشرها الآداب. آداب سهيل إدريس كانت بمثابة الجامعة، وبمثابة ملاذٍ لكلّ الإبداعات العربية. شجّعني هذا الرجلُ، ومعه ابنه سماح، على أن أعدّ ملفاً عن القضية الكردية وثقافتها، وأصرّ على أن يَنْشر هذا الملف ضمن ملفّات «العروبة الجديدة» ونظرتِها إلى ثقافات المنطقة وإلى ثقافة الشعوب التي تعيش مع العرب. نَشرت الآداب الملفَّ الذي كان يحمل عنوانًا لافتًا: «العروبة بعيون كردية.» ولأجل التحاور والتعايش، أراد سهيل مني أن أنقل دعوتَه إلى الشاعر الكردي العراقي الشهير شيركو بيكه س إلى بيروت لكي تقيم مجلةُ الآداب، وكذلك نادي الساحة، أمسيةً شعريةً له. وهذا ما حصل. اللافت في هذه الأمسية أنّ إدريس حَضَرَ برغم كهولته وبرغم مرضه؛ ولم يقفْ في حدود الحضور، وإنما تمعّن في كلِّ كلمة كانت تخرج من فم شيركو بيكه س، وصفّق مراتٍ لهذا الشعر الحداثي، مع أنّ سهيلاً كان يُزعم أنه يقف ضدّ الشعر غير المقيّد أو الموزون. ولعلّ هذا يشكل لغزًا أيضًا في حياة هذا الأديب الكبير.

والراحل كان متسعَ الصدر ومنفتحَ الرؤية. لم يشربْ من المياه العنصرية، ولكنّه كان يحبّ ثقافةَ العرب، وخَدَمَها كثيرًا. هاجسُه: المفردةُ العربية. ولذلك اشتغل على عدد من القواميس العربية الفرنسية، والفرنسية العربية، بل والعربية العربية. ومن يريد أن يعرف أكثر فليرجع إلى سيرته وأيامه التي صدرتْ في ٢٠٠١.

سهيل إدريس رحل، لكنه بقي في الوجدان وفي الذاكرة. بل إنه لم يرحل. إنه باقٍ وباق.

صحيفة العرب القطرية، ٢٠٠٨/٢/٢٠

رحيل مؤلِّف معجم المنهل ـــــــ مهدي صالح حمادي

توفّي قبل أيام قلائل الراوئي والناشر ومؤلِّفُ معجم **المنهل** الشهير الدكتور سهيل إدريس في بيروت، وذلك بعد معاناة طويلة مع المرض. وتُعتبر وفاتُه خسارةً كبيرةً لأساتذة وطلاّب اللغة الفرنسية في الدول العربية، وكذلك للمترجمين والباحثين. إذ ما كاد **المنهل** بأحجامه المختلفة يَصْدر ويباع في المكتبات، حتى تلقّى إقبالاً منقطعَ النظير، وأخذ موقعَ الصدارة. فهو ينفرد بمزايا كثيرة تَدفع بالمهتمّين باللغة الفرنسية إلى اقتنائه.

يُعتبر **المنهل** معجمًا شاملاً يضمّ آلافَ الكلمات التي أَمعن المؤلّفُ في تدقيقها مستندًا بذلك إلى عددٍ لا يُحصى من المصادر (باللغتين الفرنسية والعربية) التي قام بدراستها عن كثب. والحقّ أنّ تثبيتَ المعنى الدقيق واختيارَ المرادف ليسا بالأمر الهيّن في العمل المعجمي، خصوصًا أنّ اللغة تتطور وتظهر فيها كلماتٌ جديدة انسجامًا مع التقدم العلمي والتقني والإنساني.

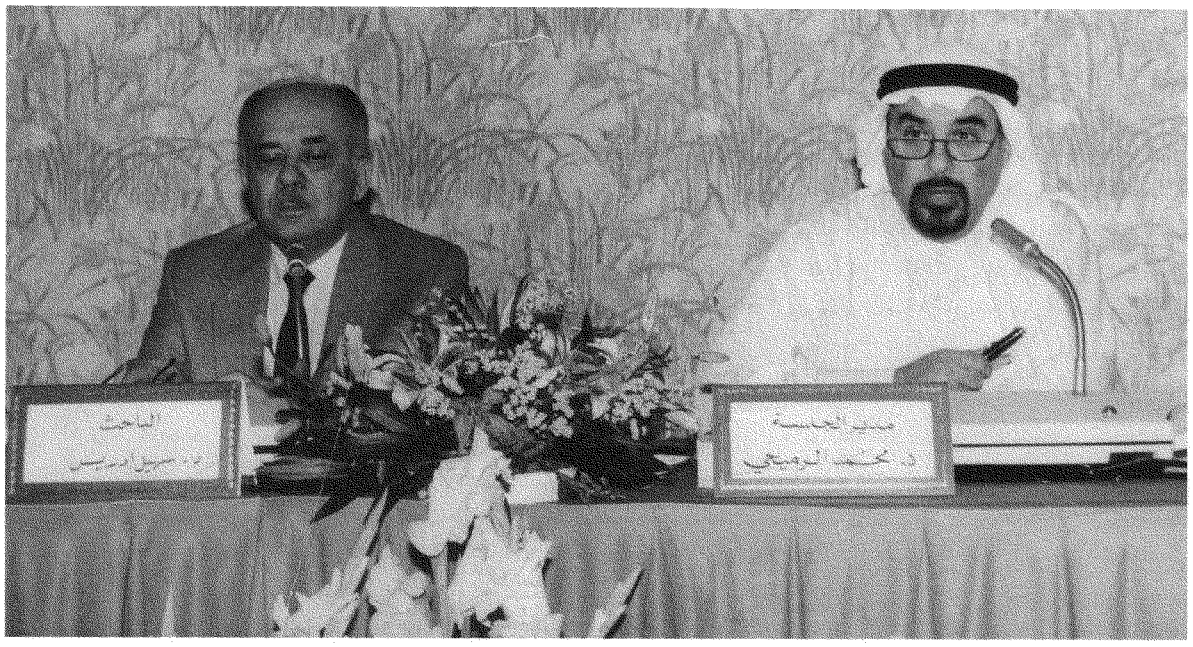

مع د. محمد الرميْحي

لقد ناف هذا القاموسُ على ١٣٠٠ صفحة، ولا يمكن الاستهانةُ بمثل هذا العدد من الصفحات التي تتواجد في قاموسٍ واحدٍ سهلِ الاستعمال. ونلاحظ عند اختيار المؤلِّف مرادفًا باللغة العربية أنه استعان بقدرة هذه اللغة على الاشتقاق، الذي يُعتبر معينَها الذي لا يَنْضب. ولمّا كانت الكلماتُ تدلّ عادةً على أكثر من معنى واحد، فقد أورد المؤلِّف مختلفَ المعاني، وقام بالتمييز بينها، كما أضاف شروحًا لتوضيحها. ولجعل قاموسه سهلاً وواضحًا ووافيًا، قام باستخدام عدة علامات مثل الفاصلة والنقطة الكبيرة والأقواس والأقواس المعكوفة والنجيْمة. كما ميّز بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، وذلك لتوفير الوقت على كلِّ مَن يستعمله سواء كان مدرِّسًا أو طالبًا أو مترجِمًا أو باحثًا، علمًا أنّ **المنهل** يُعنى بمختلف المجالات مثل القانون واللغة والادب والطبّ والفلسفة وغيرها.

لم يكن الهدفُ من تأليف هذا القاموس ماديّاً، وإنما إغناءَ المكتبة العربية وتعبيرًا عن رغبةٍ صادقةٍ وطموحٍ كبيرٍ إلى توفير معجمٍ متميّزٍ للمكتبة يكون بمثابة وسيلةٍ للتثقيف ومفتاحٍ للتعرّف على اللغة الفرنسية وحضارتها.

لقد بذل الدكتور سهيل إدريس جهدًا كبيرًا، وسهر لياليَ طوالاً، وتعب وضحّى في سبيل أن يُخرج قاموسَه بحلّة لائقة وفحوى علميةٍ ودقيقة، خدمةً للعلم والمعرفة وإسهامًا في تأدية الرسالة المعجمية. ولا يسعنا هنا إلاّ أن نعبّر عن حزننا. ولكوني مدرِّسًا للغة الفرنسية ومترجِمًا منها وإليها، أودّ أن أعبِّر عن شكري وامتناني للراحل الكبير لأنه وفّر لي ولزملائي وطلاّبي معجمًا متكاملاً بكلّ معنى الكلمة. وأودّ هنا أن أذكّر الجميعَ بالمثل الفرنسي الذي يقول: «كلُّ عناء يستحقّ أجرًا!»

فالأجرُ الذي نقدّمه للدكتور سهيل إدريس هو اعتزازُنا به وشكرُنا العميقُ له.

جريدة المدى، العراق المحتلّ

المجاهد والمفكّر والأديب — اللواء نزار عمّار

رحل سهيل إدريس. انطفأت الشعلةُ التي أنارت الفكرَ والأدبَ العربي، بعد حياة جهادية مليئة بالكدّ والعمل وكأنّ العمر لا يكفي لتفريغ هذه الطاقة الملتهبة المتواصلة، فجاء كفاحُه المريرُ في كافة المجالات: الرواية والترجمة والمعجم والنشر، ودار الآداب، ومجلة الآداب، منبر الرأي الحر، وصانعة الأجيال من المفكرين الأدباء والشعراء. فكانت الآداب، ومازالت، التعبيرَ الصادقَ عن الفكر الملتزم، تحمل قضايا وهموم الأمة العربية، وفي مقدمتها فلسطين، التي كانت قضيةَ سهيل إدريس الأولى يدافع عنها في كل المجالات، جهادًا شريفًا ملتزمًا، يتألّم لجراحها ويتفاعل مع أزماتها ويحزن لمآسيها. كانت مجلة الآداب التي أسّسها المجالَ الرحبَ لشعراء وأدباء الأرض المحتلة، وكانت إصداراتُ دار الآداب تزخم بكتب الشعر والأدب عن فلسطين وكفاحها ومقاومة شعبها.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

لقد خاض سهيل إدريس، بالكلمة الحرة والرواية الصادقة، كافةَ قضايا الأمة العربية، متجرِّدًا نقيّاً بعيدًا عن أيّ ارتباطات، في الوقت الذي انحرف فيه الكثيرون نحو التمويل من الأنظمة والحكومات، أو الانحياز إلى القوى والأحزاب، فكان مثالاً للالتزام والاستقلالية، والتعفّف. وحتى في الأزمات المادية التي واجهتْ مجلة الآداب وهدّدتْها بالتوقف، لم يقبل العونَ المشروط، ولم ينحرفْ عن الخط النزيه الوطني. ورغم التيارات والعواصف والانحرافات، ظلّ سهيل إدريس صامدًا شامخًا صلبًا عنيدًا في وجه الإغراءات والامتيازات، ورفض أن تتحول الآداب إلى سلعة تجارية، ترتهن لهذا النظام أو ذلك الزعيم أو تلك التيارات المستسلمة المنحرفة، ودَفَعَ ثمنَ استقلاليته الثمن الغالي.

في معارك القومية العربية، كان سهيل إدريس أولَ مَنْ ناصر الثورة الجزائرية، حين كانت في أشدّ الحاجة إلى دعم المفكرين والأدباء خارج الجزائر. واستمرّ في مناصرة الثوار الجزائريين ضد العسف والتسلط، ووَقَفَ مع الوحدة ضد الانفصال المشؤوم، وساند - بلا حدود - نشأةَ الثورة الفلسطينية وكفاحها المسلّح. ومنذ البدايات، في مواجهة حملات التشكيك والتشهير والنقد، كانت صفحات الآداب منبرًا شجاعًا لأدباء وشعراء الثورة الفلسطينية والمقاومة داخل الأرض المحتلة وخارجها. وتصدّى سهيل إدريس للنكسة حتى لا تتحوّل إلى هزيمة أبدية، وشجّع كافّة التيارات والأفكار التقدمية، فكان رائدًا للحداثة منذ بداياته الأدبية. وتصدّى للعقلية الرجعية المتزمّتة بكل شجاعة وإقدام. وكان يدرك، في أوانها، أنّه يسير عكس التيار، لكنه كان يؤمن في الوقت ذاته أنّ الأمة بحاجة إلى الروّاد والتقدميين وثوار التغيير، لتبديل المسار، وللنهوض من الكبوة وقيود التقاليد البالية.

وهكذا أمضى سهيل إدريس حياته الحافلة بالإنتاج المتواصل، والفكر المبدع، والعطاء الذي لم ينضب حتى **بعد** مماته: فقد أنشأ المؤسّسة، والخلفَ الصالح، والتوجهَ الصحيح، فنام قرير العين مطمئنًا إلى أنّ الشعلة لن تنطفئ أبدًا، وأنّ الأجيال الشابة ستواصل حمل الرسالة، وأنّ السيف لن يعودَ إلى غمده.

موقع دنيا الوطن، فلسطين

كتّاب مصريّون يتذكّرون: وُلدنا من رحم الآداب — تحقيق: محمد شعير

«لا يوجد مثقفٌ مصري من جيلي إلا ويدين لهذا الرجل»: هكذا علّق الروائي جمال الغيطاني على نبإ رحيل سهيل إدريس الذي سرعان ما ألقى بظلاله على جلسات «الملتقى الرابع للرواية العربية» المنعقد في القاهرة.

الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي قال إنّ رحيل إدريس «صدمةٌ شخصيةٌ... فهو لم يكن مجردَ كاتب لبناني. فقد أدّى دورًا متميِّزًا في الثقافة العربية، لا بصفته رئيسًا لتحرير الآداب فقط، بل أيضًا بصفته روائيّاً متميزًا، شُغِلَ بالقضايا الأساسية نفسها التي شُغلنا بها نحن: علاقتنا بالغرب، وعلاقتنا بالتراث. والذين قرأوا **الحيّ اللاتيني** يعرفون أنّه قدّم للرواية العربية إضافةً حقيقيةً، وكانت حلقةً في طريقٍ بدأه توفيق الحكيم ويحيى حقّي وطه حسين. وقد أدّى هذا الدورَ باعتباره أيضًا صاحبَ مشروع ثقافي هو مجلةُ الآداب، التي كانت علامةً أساسيةً في طريق النهضة. وقد ظهرتْ في بيروت في العام الذي احتجبتْ فيه مجلةُ **الرسالة** للزيّات، فحملت الشعلةَ قبل أن تسقط، وواصلت التقدمَ بها. وعلى صفحات الآداب انتصرتْ حركةُ تجديد الشعر العربي، والتقى جيلٌ من الكتّاب المصريين واللبنانيين والسوريين والعراقيين، ووَجدت العروبةُ التقدميةُ منبرَها الذي جلجل فيه صوتُها طوال الخمسينيات والستينات.» ويضيف حجازي: «قصائدي الأولى نشرتُها في الآداب. كما أنّ جيلنا الأدبي برمّته يدين لإدريس بالفضل؛ فلقد نَشر الديوانَ الأول لصلاح عبد الصبور، والكتابَ الأول لرجاء النقّاش، ولأمل دنقل.» ويضيف حجازي: «كان سهيل أيضًا صاحبَ موقف. هذا الموقف كان تعبيرًا عن فكرة العروبة. فقد كانت في لبنان مؤسساتٌ أخرى تنحاز لتيارات فكرية وسياسية مختلفة تتحدث إمّا عن القومية السورية أو عن علاقة لبنان بالثقافة الأوروبية أكثر من علاقتها بالثقافة العربية. فظهر سهيل ليمثِّل التيارَ الآخر الذى يحقّق التوازن.» ويستكمل حجازي مواقفَ إدريس: «عندما فَصَلني السادات من عملي الصحافي عامَ ١٩٧٣، دافع سهيل عنّا في اتحاد الكتّاب العرب. ويمكن أن أرصد له عشرات المواقف. الدور الذي أداه سهيل يُحْيي ذاكرتَه ويَضمن له حياةً باقيةً.»

الدكتور جابر عصفور اعتبر إدريس «رمزًا ساطعًا من رموز الاتجاه القومي.» ويتذكّر: «نشرتُ كلَّ مقالاتي الأولى في الآداب.»

أما الروائي بهاء طاهر فتأثّر عندما عرف بخبر رحيل إدريس. «مجلّة الآداب كانت المتنفَّسَ الوحيدَ المتاحَ لنا طوال الخمسينيات والستينيات، عرّفتْنا إلى كلّ التيارات الجديدة في الغرب. وتبلورتْ فيها كلُّ التيارات الجديدة في الأدب العربي.»

مع الرئيس تقي الدين الصلح ومنح الصلح وملحم كرم

الروائي إدوار الخرّاط تحدّث بحزنٍ عن رحيل إدريس والدور الذي أدته المجلة و«دار الآداب»: «لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الذي أدّته المجلة بالتزامها أفكارَ القومية العربية وأطروحاتها، والتعريفِ بأهمّ التيارات الأدبية والفلسفية الفرنسية مثل الوجودية. والآداب أتاحت مناخًا ديناميكيّاً تهبّ فيه رياحُ التجديد، بل التجريب والمغامرة، في وجه الجمود السلفي وضيقِ الأفق التقليدي.»

بعدما استوعب جمال الغيطاني مفاجأةَ الرحيل، أضاف: «كان النشر في الآداب بمثابة ميلاد لظهور أديب جديد، نظرًا إلى صدقية المجلة. لا يمكنني نسيانُ الفرح الذي انتابني يوم نشرتُ فيها قصتي الأولى 'رسالة فتاة من الشمال' عام ١٩٦٤.» ويضيف: «لقد أقدم ادريس على نشر **أولاد حارتنا** بعد مصادرتها. وهذا ما لم ينسه له نجيب محفوظ حتى رحيله.»

الروائي محمد البساطي يضيف قيمةً أخرى تركها إدريس: «عبر الآداب، تعرّفتُ إلى أدباء العربية كفؤاد التكرلي وزكريا تامر وكلّ أبناء جيلي في بلدان عربية أخرى.»

أما الروائي خيري شلبي فرأى أنّ الدور الذي أدّاه إدريس خطير. فقد صدرت الآداب في لحظة تاريخية، وجمعت النخبَ الثقافيةَ من الوطن العربي، فاعتُبرت «الحضنَ الأولَ الذي احتوى بواكيرَ تجربةِ التجديد في الشعر العربي الحديث والقصة العربية.»

جريدة الأخبار، ٢٠٠٨/٢/٢٠

سهيل إدريس صانع المشاريع... حياة واحدة لا تكفي لكل هذا الإنجاز ——— (شهادات)*

حنّا مينة: إلى سدرة المنتهى رحيلُكَ يا معلّم

الذي علّم الإعجازَ تحطّمتْ به سفينةُ العمر على صخرة الموت. فحُقَّ للأجيال أن تبكيَه، وأن ترثيَه، وأن تفتقدَه راحلاً على جناحِ غمامةٍ بيضاءَ إلى سدرة المنتهى.

لقد مات المعلّم! مات الدكتور سهيل إدريس، صاحبُ رواية **الحيّ اللاتيني**، وما تلاها من روايات ومن عطاءات أدبية نَهَلَ منها وتتلمذ عليها جيلُنا، نحن الأدباء الذين يعتصر الأسى قلوبَهم على فقد هذا الرائد الكبير الكبير، مؤسِّس مجلةِ الآداب، وباني أعرق دارٍ للأدب في الوطن العربي كلِّه، ليس لأنّها دارُ «الآداب» وحسب، بل لأنها أيضًا مدرسةٌ تخرّجتْ منها أجيالٌ وأجيالٌ من الأدباء العرب، ومنْ هؤلاء حنّا مينة، الذي تحُول المسافاتُ والأمراضُ بينه وبين وداعِ هذا المعلّم شخصيّاً، فيكتفي ـ وهو على هذا البعد ـ أن يرشقَ قارورةَ عطرٍ على جانح نعشه المكفّنِ بالجلال.

---

* ـ لم نوردْ هنا شهاداتِ مَنْ وردتْ شهاداتُهم الأخرى (وإنْ بصيَغ مختلفة) في منابر إضافية. (الآداب)

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

إنّ الرحيل في عربة الموت، على طريق الأبدية، هو قدرُنا جميعًا: فلكلّ أجلٍ كتابٌ، ولكلّ نجمةٍ أفولٌ، و«كلُّ أخٍ مُفارقُه أخوه، وكلُّ مشعشعٍ فإلى غروب.» إلاّ أنّ المرض الذي أَقعد هذا المعلّمَ طوال أعوام، واحتمله صابرًا محتسبًا طوال أعوام، قد أوهن جسدَه، ويرى لسانَه الذي طالما بَرَتْه الكلماتُ التي خطّها لنا، وفيها عصارةُ دماغه وخلاصةُ تجاربه، وفيها دعوتُه التي تركها وصيةً لنا: أن يكون للأدباء اعتصامٌ بالعروة الوثقى، ووثوقٌ بقدسية الحرف، وإيمانٌ بقدرة الكلمة، لتكون لهم وحدةٌ تدفعَ الغائلةَ عنهم، وقدرةٌ على فرض حرية التعبير، التي دُونها يعتري القلمَ الشريفَ شللٌ قاتلٌ ليس في مصلحة أحد، من حكّام ومحكومين، في هذا الوطن العربي الكبير. كما كانت للمعلّم الراحل رغبةٌ قلبيةٌ في أن يسودَ السلامُ والوئامُ والمحبةُ ما بين الشقيقين سوريا ولبنان. فيا أيُّها المعلم الراحل والزميل في أمنيتك المجتلاة من أجل وحدة العرب في كلّ أقطارهم، لا نملك أن نقول لك إلاّ ما قاله الجواهري في رثاء الوطني العراقي الكبير جعفر أبو التمن: «طالت، ولو قصرتْ يدُ الأقدار/ لَرَمَتْ سواك، عظُمْتَ مِنْ مختارِ!»

نعم طالت يدُ القدر، ولا رادَّ للقدر. طالت فشالت بكَ إلى علِّيين، وقَصرتْ بنا لأننا تخلّفنا في الرّكب عنكَ، وكنّا كما قال حافظ إبراهيم لأحمد شوقي: «قد كنتُ أوثر أن تقولَ رثائي/ يا مُنْصِفَ الموتى من الأحياءِ!»

وحاشى يا معلّم، أيها المنْصِف ونعمَ المجير، حاشى أن تكون قصّرتَ في إنصافِ أحد، وفي أخذنا في طريق الإبداع الذي هو الأغلى والأسمى في دنيانا الفانية هذه. لكَ رحمةُ ربكَ ومرضاته وغفرانه. ولأسرتكَ المفجوعةِ بك جميلُ الصبر وصادقُ العزاء.

محمد علي شمس الدين: الرمز

رحل سهيل إدريس، لكنّ اسمه في ما هو رمزٌ أدبي إبداعي وقومي سيبقى طويلاً. فقد حَفَرَ في الذاكرة الأدبية خطوطًا يصعب أن تُمْحى بسهولة.

كان من أوائل مَنْ مزج الفكرَ العربي بالثقافة الغربية، من خلال اهتمامه بالأدب الوجودي والفلسفة الوجودية، وبالترجمات التي فتح دارَ الآداب لها: فقامت بهذه الترجمات زوجتُه عايدة مطرجي إدريس، أو هو مباشرةً، أو مِنَ انتدبهم لذلك.

ولا ننسى سهيل ادريس الروائي من خلال روايته المبكّرة **الحيّ اللاتيني** و**الخندق الغميق** و**أصابعنا التي تحترق**. أما سهيل ادريس صاحب دار الآداب ومجلة الآداب، فإنّه كان مركزَ جذبٍ للشعر العربي الحديث والمعاصر، وللرواية العربية الحديثة والمعاصرة، إذ يَنْدر أن تجد شاعرًا أو روائيًا ذا قيمة إبداعية لم يمرّ بهذه الدار وهذه المجلة.

رحم اللّه سهيل ادريس. لقد كان بالنسبة إليّ صديقًا حميمًا ودودًا في الأسفار والإقامة. إنّ تسعةً من دواويني الشعرية صدرتْ عن دار الآداب، أيْ ما يوازي ثلاثةَ أرباع ما كتبتُه من شعر، وقصائدي المبكّرة ظهرتْ في هذه المجلة، فكيف أنسى وكيف لا أحزن؟ ولكنْ كما أنّ الحياة استمرارٌ، والثقافةَ استمرارٌ، فإنّ لسهيل إدريس مَنْ يجدِّد حضوره، بل يطوِّر هذا الحضور. ذلك أنّ لمسات سماح إدريس في المجلة، ورنا إدريس في الدار، تشكّل استمرارًا لمعنى الحياة الأدبية والثقافية المتطورة التي تُعتبر الآداب أساسًا لها.

محمد إبراهيم أبو سنّة: من كبار المثقفين ومن أفضل الروائيين

ابتداءً، أشعر بالصدمة والأسى لرحيل واحدٍ من كبار المثقفين العرب، ومن أفضل كتّابها الروائيين في القرن العشرين. تغمّده اللّهُ برحمته، وبالغ العزاء لأسرته التي تواصل أداءَ رسالته في مجال النشر وإصدار مجلته الرائعة: مجلة الآداب.

سهيل وجهٌ مشرقٌ ونادر، استطاع أن يقدِّم للحركة الشعرية العربية والمصرية في بدايتها في الخمسينيات والستينيات نافذةً واسعةً ومنبرًا للإطلال على المنجَز الشعري في البلدان العربية، وكذلك الإطلال على الساحة الثقافية والإبداعية العالمية. وجيلي على وجه التحديد، وجيلُ شعراء الستينيات والخمسينيات، مَدينان له: فقد مدّ يدَ العونَ لهما لنشر أعمالهما على صفحات مجلته التي كانت تُعدّ منبرًا قوميًا؛ كما حَمَلتْ رسالةَ الشعر الحديث، وأصّلتْ للتيارات الإبداعية الحديثة سواء في القصة أو المسرح أو النقد الأدبي. وأنا شخصيًا نشرتُ ديواني الثاني **حدقة الشتاء** في دار الآداب.

هذه الدار كان النشرُ فيها بمثابة جائزة أدبية، لأنّها كانت تحمل أسماءنا إلى أركان الوطن العربي كلّه. ولا أنسى أنّ سهيل، بشفافيته ونبله وكرمه، كان وراء توجيه الدعوة لي للمشاركة في الملتقى الشعري العربي الثاني الذي عُقد ببيروت عام ١٩٧٤، واستقبلني وزميلي «وفاء وجدي» بكثيرٍ من المحبة والترحاب.

إنّ الوفاء بديْن سهيل إدريس الأدبي أكبرُ من طاقتنا. فقد استطاع بجهوده في مجال النشر أن يوصلَ أصواتَنا وإبداعَنا إلى القرّاء العرب في كلّ مكان. كما أنّ دور مجلة الآداب أيضًا كان دورًا طليعيًا في إطلاعنا على التيارات الأدبية والفكرية العالمية. أنا أشعر

مع عايدة وحسين مروّة في موسكو

بخسارة فادحة لكنّي على ثقة بأنّ الضمير الأدبي العربي سيظلّ محتفظًا بمحبةٍ صادقةٍ لهذا الأديب والناشر العظيم والمدافع عن حركة الحداثة ورافع لواء المنابر القومية في النشر.

سهيل إدريس هو الذي عرّف أدباءَ العربية ببعضهم البعض. ولولا مجلةُ الآداب، التي أسّسها ورأس تحريرَها، لخابت كثيرٌ من الآمال في سطوع روّاد حركة الشعر الحديث ورموزه. سهيل إدريس ناشر وروائي ومترجم وناقد يمثّل صورةً مشرقةً ونادرةً لمرحلة من مراحل النهضة الأدبية العربية في القرن العشرين.

جمال الغيطاني: علامة مضيئة

كان صرحًا ثقافيّاً عظيمًا، وسيظلّ علامةً مضيئةً في الثقافة العربية. ومما يجعلني أحسّ بالعزاء أننا خصّصنا له عددًا من جريدة **أخبار الأدب** عامَ ٢٠٠٣. ليس هناك مثقفٌ عربي ليس مدينًا لسهيل إدريس: فقد أسس وترأّس مجلةَ الآداب، التي تبنّت الاتجاهَ القومي، وقدّمتْ أهمَّ الأسماء الشعرية والنقدية وغيرها: كما قامت دارُ الآداب بتقديم التيارات العالمية في الأدب، وإنّها دارٌ يفخر أيُّ كاتب بأنْ ينشر فيها. ولا ننسى أنّه من نشر روايةَ نجيب محفوظ **أولاد حارتنا**.

وليد إخلاصي: الغائب الحاضر

رحيل سهيل ادريس يُحْيي في الذاكرة مجلة الآداب الشهرية التي كان رئيسَ تحريرها منذ العدد الأول في العام ١٩٥٣. وكان قد كتب في مقدّمة العدد الأول من السنة الثانية: «إنّ هذه المجلة تلحّ على اتجاهين: أولُهما وأهمُّهما، دون ريب، محاربةُ الاستعمار الذي ترزح تحته الأمةُ العربية، أيّاً كان شكلُ هذا الاستعمار، وأيّاً كانت الدولةُ الأجنبيةُ التي يصدر عنها. وأما الاتجاه الثاني، فاستيحاءُ المجتمع العربي الأدب الذي يحتاج اليه هذا المجتمع.»

منذ البداية أَعلن سهيل ادريس عن ربط المشروع الثقافي المتمثّل في مجلة الآداب بوجهَيْ عملة القضية العربية: النضالي والإبداعي. وهكذا استمرّ متقدّمًا في دربه، فكان أن استقطب مشروعُه أهمَّ الكتّاب والشعراء وأوسعَ رقعةٍ من المثقفين العرب. وحين ظهرتْ دارُ الآداب للنشر، كان سهيل إدريس يستكمل مشروعَ عمره، تسانده أسرتُه من طرفٍ، والتعاطفُ الجماهيريُّ من طرف آخر.

نصفَ قرنٍ من الإبداع والإيمان بدور الثقافة في الحياة، أمضاه سهيل إدريس بحيويةٍ وإخلاصٍ جعلا منه واحدًا من الرموز الثقافية العربية. فما عاد غيابُه عن المسرح بمؤثّرٍ في الدور الذي ارتضاه بعد أن بات حضورُه الغائبُ الآنَ وجودًا مستمرّاً في الزمن القادم.

كان سهيل إدريس مزارعًا جادّاً أتقن دفنَ البذرة في تربة خصبة، وروى الأرضَ بالمثابرة والاخلاص للمجتمع الممتدّ على ساحة الجغرافيا العربية. فلنُحَيِّ الراحلَ بالدعاء لمن يَعْمل على متابعةِ مشروعه بالحرارة التي كانت لسهيل إدريس.

جريدة السفير، ٢٠٠٨/٢/٢٠

سهيل إدريس (١٩٢٥ ـ ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

سهيل إدريس: هذه الحالة الثقافية الحيَّة والمرئيّة

جهاد الترك

...وكأنّ رحيلَ الكاتب الكبير، سهيل إدريس، في هذه اللحظة المفعمة بالفوضى السياسية والإيديولوجية والفكرية، قد جاء استكمالاً ناقصًا لمسيرة طويلة ومعقّدة ودؤوبة من المقاربات الأدبية والكتابية التي جعلها من أولويات أهدافه في هذا المجال. الأرجح أنّ الأمر كذلك، وإنْ كان هذا التصورُ ينطوي على شيء كثير من الميل الافتراضي في فهم التوجّهات الكبرى لهذا الأديب اللبناني العربي. وإنه استكمالٌ ناقصٌ بمعنى أنّ الأقدار أفسحتْ في المجال لسهيل إدريس ليعاينَ من كثبٍ طبيعةَ انغماسه العميق والمبكّر في القضايا الفكرية الكبرى التي يَشْهدها لبنانُ والوطنُ العربي منذ مطلع الأربعينات الماضية. فإذا به يتلمّس النتائجَ التي أسفرتْ عنها هذه الحِقبةُ الغنيةُ على نحوٍ زاده اقتناعًا بصوابية مشروعه الأدبي الفكري الذي باشر به مقارباتِه المذكورة. أو أنه، على نحوٍ مماثل، زاده اقتناعًا بأنّ الفصول المتعاقبة لهذه الفترة، الحبلى بالتطورات والمفاجآت والصدمات، لم تكن من النسيج الحقيقي الذي كان يتمنّى ويبتغي. ومع ذلك، لا شيء يدلّ إلى أنّ إدريس قد أبدى تذمّرًا أو حتى استنكارًا أو امتعاضًا من مشروعه المبكّر أو مساجلاته الأدبية الحامية، أو مواقفِه التي اتّسمتْ بتوجّهٍ إيديولوجيّ هادئ، باعتبار أنه كان الابنَ البارَّ لتلك المرحلة. ولربما كان، وهو يتأمل أفعالَه ونشاطَه واستجاباته وانفعالاته، بدا أمْيلَ إلى الاعتقاد أنه أدّى دورَه تأديةً موضوعيةً. لم ينسحبْ من الساحة الأدبية في تلك الاثناء، ولم يُدِرْ ظهرَه لأكثر المواقف إلحاحًا على ذهن مثقفي تلك السنوات المحمومة بالأفكار الكبرى.

على هذا الأساس، يبدو أنّ سهيل إدريس كان من تلك القلّة من المثقفين الكبار الذين آثروا أن يضعوا أقوالَهم ومبادئهم والتزامَهم ومواقفَهم موضعَ الفعل الفوري والممارسة. نراه، بعد أن تخلّى عن زيّه الديني في العام ١٩٤٠، بعد أن تخرّج في كليّة فاروق الشرعية التابعة لجمعية المقاصد الإسلامية في بيروت، يلتحق فورًا بنفرٍ قليلٍ من الصحافيين الذين راحوا، في تلك الاثناء، يضعون أفكارَهم في مواجهة قضايا العصر. والأغلب، في هذا السياق، ونتيجةً لما كان يعتمل في نفسه المتوثّبة إلى الاقتراب من الحقائق الكبرى في تلك السنوات التأسيسية الأولى، أنّه اتخذ قرارًا حاسمًا بالسفر إلى عاصمة الثقافة العالمية باريس. ولم يكن ارتيادُه جامعةَ السوربون الفرنسية في مطلع الخمسينات من قبيل الحصول على إجازة جامعية عليا تُعينه على تدبّر مسالك الحياة الصعبة (لم يكن هذا مطلَبه على الأرجح)، بل أراد أن يلقي بنفسه هناك في أتون التجاذب الفكري والثقافي الذي كانت شرارتُه الملتهبةُ تتطاير في شتّى أنحاء العالم الثالث، وتحديدًا في الأروقة الساخنة في الوطن العربي. وبالمثل، لم يكن اختيارُه موضوعَ «القِصة العربية الحديثة والمؤثّرات الأجنبية فيها من العام ١٩٠٠ إلى العام ١٩٥٠» من قبيل الإطلالة المترفة على هذا النوع من الكتابة؛ فلقد تعلّم أنّ انصرافَه إلى مناقشة هذه القضية إنما كان مردُّه إلى محاولة حقيقية لمقاربة المسائل الاجتماعية ـ السياسية ـ الإيديولوجية في لبنان والوطن العربي انطلاقًا من النموذج الأدبي الأكثر تمثيلاً لها وتعبيرًا عنها: الرواية العربية التي كانت تنتشر في تلك السنوات انتشارَ النار في الهشيم.

بدت الرواية، في تحولاتها العربية على وجه الخصوص، سبيلاً موضوعياً ذا دلالةٍ قاطعةٍ على الانشغالات الفكرية التي كانت تحتلّ الحيّزَ الأوسعَ للذاكرة الثقافية ـ الفكرية لسهيل إدريس. وقد رَفَدَها وعمّقها في هذا الاتجاه الإقبالُ الواسعُ لهذا الأخير على ترجمة بعض أعمال المفكّر الوجودي جان بول سارتر، لترافق على امتداد سنوات رواياته الثلاث، **الحيّ اللاتيني** و**الخندق الغميق** و**أصابعنا التي تحترق**، وأيضًا في مجموعاته القصصية الأخرى. ومع ذلك، كان إدريس، في تلك المرحلة الصاخبة، أحوجَ ما يكون إلى فلسفة وجودية من هذا النمط، ليعيد قراءةَ توجّهاته في القومية العربية وإيديولوجيتها المتحركة في تلك المرحلة على إيقاع الرؤية القومية النابضة للزعيم الراحل جمال عبد الناصر. إنّه سياقٌ من التفتّح على المسائل الرئيسية في خمسينات القرن الماضي وستيناته، بعضُه يتفرّع من بعضه الآخر على نحوٍ من لملمة عناصر المشروع الكبير الذي كان يستحوذ على ذهن سهيل إدريس. على هذه الخلفية، لم يَظْهر الكاتبُ الراحلُ على الإطلاق ابنًا ضالاً للتمخّضات الإيديولوجية والأدبية التي كانت تدور على مقربةٍ منه. فالحال أنّ إدريس لم يتنكّر أبدًا لعِمامته الدينية التي أبدلها بالزيّ الغربي، كما يحلو لكثيرين القول، على الأقلّ في تلك السنوات التي شَهدتْ هذا التحولَ. الأرجح انه أراد بذلك أن **يوسّع إطارَ الاندماج في قضايا العصر** وتفاعلاته وتجاذباته القوية. أراد ان يحتكم إلى التجربة المَيْدانية، إلى أن تقترب حثيثًا من مصانع الفكر والثقافة التي كانت تهيمن على خصوصية تلك السنوات المصيرية. وفي الوقت عينه، لم يكن ليتقبّل اعتقادًا تلقائيّاً بفكر القومية العربية بعيدًا من أرضياتٍ وجذورٍ سياسيةٍ وإيديولوجية أخرى يتعذّر تجاهلُها استكمالاً لمشروعه الذي لم يكن ينفصل في الأساس عن التحولات الاجتماعية والفكرية الكبرى في العالم. المهمّ أنّ إدريس تمكّن بنجاحٍ من توظيف ثقافته الواسعة وإصراره على النهل من منابعها الأساسية في أعماله الكتابية، وتحديدًا الروائية.

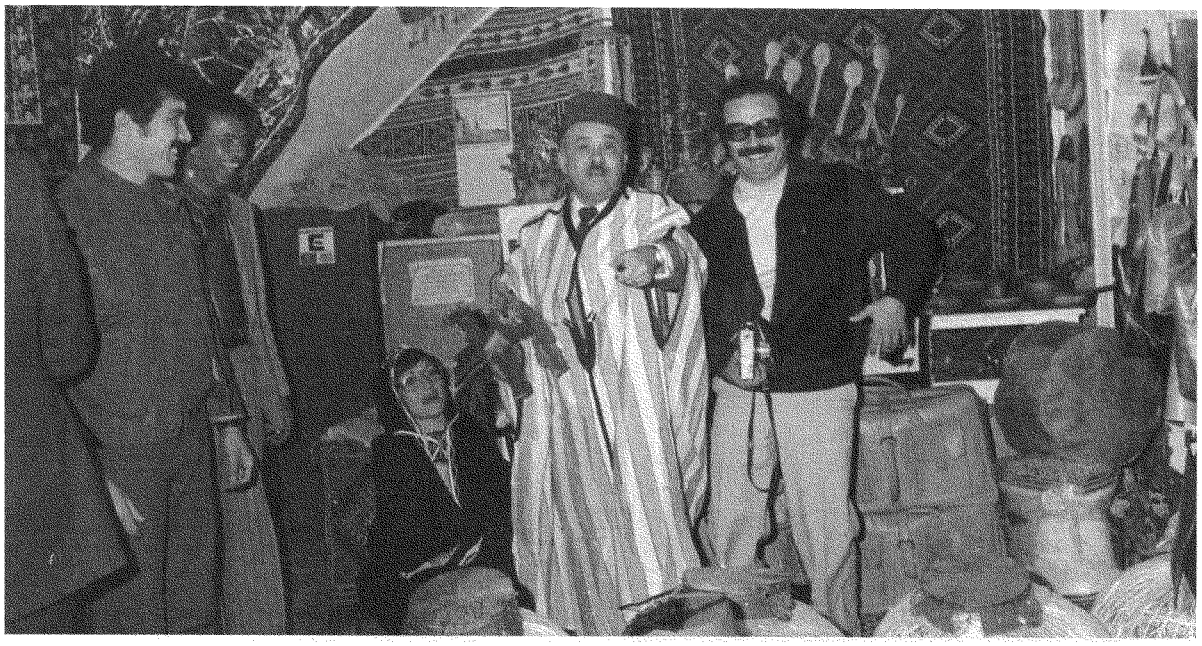

صورة لسهيل مجهولة المكان والزمان

من هنا الالتزامُ الاستثنائي لسهيل إدريس بسائر تفاصيل مشروعه الأدبي ـ الفكري. قد يخيَّل إلى بعضهم أنه يمكن تصنيفُ إدريس في خانة تلك الكوكبة من الروّاد الأوائل في لبنان والوطن العربي الذين أبدوا التزامًا متطرفًا بمعتقداتهم الإيديولوجية، كما كانت الحال في تلك الحِقبة. غير أنّ هذا الرأي لا يصحّ بالمطلق على سهيل إدريس. الأغلب أنه أثبت التزامًا كهذا بالقدْرِ الذي مكّنه، في نهاية المطاف، من توظيفِهِ واستثماره في أعماله الكتابية. وعلى هذا الأساس، **كان ملتزمًا حقًا، ولكنْ ليس على نحوٍ نظريّ مترف.** فقد بدا أقربَ إلى الالتزام العملي بما يؤْمن ويعتقد ويعمل من أجله. وهذه الميزة، على الأرجح، هي التي تجعل التزامًا بهذا الحجم علامةً فارقةً في حياة الراحل الكبير. وهي كذلك التي تحيله كاتبًا يختلف عن غيره بشكلٍ نوعي.

كانت مجلةُ الآداب، التي أسّسها إدريس متعاونًا مع المرحومَيْن بهيج عثمان ومنير البعلبكي، ثم استقلّ بها عنهما، المختبرَ الأهمَّ للكيفية التي قارب بها قضايا عصره بما يدعو إلى الإعجاب. فقد جعلها، نتيجةً لهذا النمط المحدَّد من الالتزام، مِنبرًا مفتوحًا، في أوسع حدودٍ ممكنة، لكتّابٍ بدأوا مغمورين، ثم احتلّوا مقاعدَهم الأدبية بامتياز. ولقد شكّلت المجلةُ، في مطلع الخمسينات الماضية، التجربَةَ الواقعيةَ الأولى لإدريس ومدى قدرته على اختبار مواقفِه الإيديولوجية ونزعته المتوثّبة إلى التجديد، والطريقةَ المثلى لمناقشة الأفكار التي كان يتحسّسها عن قرب وبكثيرٍ من الحميمية والصدق والتشبّث. في هذه المجلة، وعلى صفحاتها، طيلة سنوات أرادها إدريس ألاّ تكون من سقطات الوقت الضائع، كان يواجه نفسَه بالدرجة الأولى، باحثًا عن أجوبةٍ مُقْنعةٍ تنسجم مع طبيعة تلك المرحلة.

غير أنّ هذا التوجه القومي والوجودي إلى الذات لم يكن من شأنه أن يَحُول دون الالتفات إلى ما لدى الآخرين من مواهبَ ومَلَكاتٍ هامةٍ في الفكر والكتابة والتطور الأدبي. رويدًا رويدًا، انفتحت الذاتُ على الموضوع، واقترب الطرفان إلى حدّ التماهي. أصبح لهذه المطبوعة، ذاتِ الدور العضوي في لبنان والوطن العربي في تلك الأثناء، مهمّاتٌ أخرى، منها الإصرارُ على اكتشاف المواهب الحقيقية التي تُغْني الثقافةَ العربيةَ المعاصرة، وتحديدًا اللغة التي بدت في أمسّ الحاجة لأن تطوِّر تقنياتٍ من داخلها استجابةً للأدب والفكر العالميْن. ولم تكن السجالاتُ الحاميةُ التي خاضتها هذه المجلة مع مثيلتها **شعر**، التي أسّسها يوسف الخال، سوى أحد التعبيرات الحيوية عن انشغال إدريس بهموم اللغة والشعر واستنهاضهما من داخلهما. لم يكن إدريس مناقضًا لقصيدة النثر التي دعت إليها مجلةُ **شعر**؛ غير أنه، على الأغلب، بدا مهتمّاً بهُويةٍ للكتابة العربية تختلف بالشكل عن مضمون **شعر** ولا تفترق عنه في الجوهر.

ماذا يبقى اليوم من سهيل إدريس؟ كلُّ شيء من دون استثناء: الالتزامُ المنفتحُ على العصر من دون ضوابط ومحدِّدات؛ الرغبةُ الجامحةُ في الأشكال الأدبية الجديدة والمستجدّة؛ تطويرُ هُويةِ الإنتاج الأدبي في لبنان والوطن العربي على نحوٍ يَجْعل منها المَعْلَمَ الثقافي والحضاري الأولَ في هذا الزمن القلق، بل يجعل منه حالةً مركّبةً: اختلطتْ فيها الخياراتُ القومية بالوجودية بالتغييرية بالتقدمية، وبالانحياز إلى التيارات الشعرية «الثورية،» لكن المصوغة بالشعر الحرّ أو التفعيلة تعبيرًا عن تطور الإرث العربي بموزونه التفعيلي،

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

وبشعريته المرتبطة بالمضامين التي التزمها سهيل إدريس ضمن تصاعد النبرات القومية (الناصرية، البعثية، اليسارية) لتكون مقابلةً أو مواجهةً مع التشكيل «النثري» للشعر... الذي بدا لإدريس ظاهرةً غربيةً غريبةً تمسّ الفضاءاتِ القوميةَ وتنحرف عن معاركها الأساسية ومساراتها التاريخية. وهذا ما يفسّر نعتَ شعراء **شعر** أو مجلة **شعر** نفسها بـ «العدمية،» أو على الأقلّ بالارتباط بما يدمِّر العروبةَ (انتماءً) والقوميةَ (ارتباطًا) والحروب المصيرية مع إسرائيل (التزامًا). لذا كان تبنّيه لشعراء التفعيلة كبدر شاكر السيّاب وعبد الوهاب البيّاتي وخليل حاوي وميشال سليمان، باعتبار أنّ الشعر ـ وإنْ ثوريّاً، أو متأثِّرًا بالغرب ـ جزءٌ من التزام معركة الهوية العربية، ومعركةِ مواجهة إسرائيل تحت شعار استعادة فلسطين. وبرغم نكسة ٦٧ لم يستسلمْ سهيل إدريس، ولم يغيّر مسارَه، ولم تُحبَط عزيمتُه، ولم يتناول الهزيمةَ كمعطًى نهائي لازب ولا حتمية أبدية: على العكس، صعّد في رواياته، ولا سيما **أصابعنا التي تحترق**، وفي إصداراته (دار الآداب) وفي مجلته الآداب، النبرةَ التساؤليةَ عن أسباب الهزيمة. لكنّه في الوقت نفسه ازداد اتصالاً بالقضايا العربية وبالحريات والديموقراطية (اتحاد الكتّاب اللبنانيين)، وبضرورة النهوض من هذه النكسة، في ما يُشْبه عمليةَ مراجعةٍ أو مقاربةٍ نقدية، حتى الإيمان بهذه الأمة العربية وطاقاتها ومكوّناتها.

جريدة المستقبل، ٢١ شباط ٢٠٠٨

ابن الخندق الغميق ذهب ليبحث عن نفسه الضائعة تاركًا أصابعنا تحترق ——— رفيف رضا صيداوي

البحث في فكر سهيل إدريس يستدعي حكمًا الانطلاقَ من التزامه القومي العربي الذي انعكس على أدبه وعلى مجمل نشاطاته الثقافية والاجتماعية. فهو صاحبُ مجلة ثقافية أدبية رائدة في تبنّي الحداثة الفنية، في مجالات القصة والرواية والشعر والمسرح والرسم، انطلاقًا من الواقع العربي. وهو صاحبُ مجلةٍ ودارٍ للنشر، سلك من خلالهما خطَّ الالتزام القومي العربي.

لن نتطرّقَ إلى نشأة سهيل ادريس وارتباطها بفكره القومي هذا، علمًا بأنّ هذا المثقف هو ابنُ بيئة بيروتية مسلمة محافظة، تلقّى علومَه في كليّة المقاصد الإسلامية بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٥، ثم تلقّى لاحقًا دراسةً دينيةً عبر انخراطه في معهدٍ ديني، قبل أن يعود ليوفِّقَ بين الدراستين الدينية والعلمية مطلّقًا المشيخةَ ومتابعًا دراستَه الجامعية في فرنسا التي حصل فيها على شهادة الدكتوراه في الآداب.

نشأةُ سهيل إدريس كان يُمْكنها، إذًا، أن تَدْفع به إلى رحاب الفكر الماركسي أو الليبيرالي أو الإسلامي أو غيرِها من التيارات الفكرية المعبِّرة عن أبرز الإيديولوجيات التي سادت في الحياة الثقافية العربية واللبنانية في النصف الأول من القرن العشرين، إلى جانب الإيديولوجيات القومية، وهي المرحلة التي تشكّلتْ فيها رؤيةُ إدريس إلى العالم، وهو المولودُ عامَ ١٩٢٥. غير أنّ ما نودّ التركيزَ عليه هو مردودُ هذا الالتزام الفكري على الثقافة عمومًا، وعلى الأدب الروائي اللبناني، وخصوصًا في عقدي الخمسينات والستينات من القرن المنصرم. فالحماسة القومية التي أشعلتْها بعضُ الإنجازات القومية، كتأميم قناة السويس ومعركةِ بور سعيد وقيام الوحدة بين مصر وسوريا في الخمسينات، ثم انتصارِ ثورتَي الجزائر واليمن في الستينات وقيام ثورتَي العراق وسوريا...إلخ، كلُّها دوافعُ قادت سهيل إدريس إلى التزام القضايا الوطنية والعربية، وإلى ممارسة دوره كمثقفٍ عضويٍّ لا يَفْصل بين الفكر والممارسة في سبيل ترجمةِ طموحه القومي إلى التحرّر من سيطرة الغرب الاستعماري والصهيونية، وترجمةِ طموحه إلى تحقيق حلم الوحدة العربية واقعًا فعليّاً.

تشير مواقفُ سهيل إدريس من الحوادث المصيرية التي واجهها العالمُ العربي ولبنان خلال العقود الحاسمة بين بداية الخمسينات حتى الربع الأول من السبعينات، والتي نشرها في مجلته الآداب وجَمَعَها لاحقًا في كتابه **في معترك القومية والحرية** الصادر عام ١٩٧٧، إلى مقدار حماسته آنذاك، والتي عاد وانتقدها بنفسه في قوله إنّ قَدْرَ الحماسة الطاغية في هذه المواقف «قد طغى على قَدْر التأمل والتعمّق.»[١] لكنه برّر حماستَه بالوعود التي حملتْها تلك المرحلةُ التي تملأ، على تعبيره، الصدورَ بالثقة، متابعًا أنّ مهمّات الفكر والأدب في تلك الفترة «أن يحدوَا القافلةَ السائرةَ ويغنّيا لها... وليس الذَّنْبُ ذنبَهما إذا ما آل عددٌ من تلك الإنجازات إلى الإجهاض والانحسار حتى بَلَغْنا ما نحن عليه من أسًى وتشاؤم... بالرغم من إيماننا بأنّ الشعب لا يتزعزع.»[٢]

---

١ ـ ٢ ـ في **معترك القومية والحرية** (بيروت: دار الآداب ١٩٧٧)، نفسه، ص ٦، ٦٨.

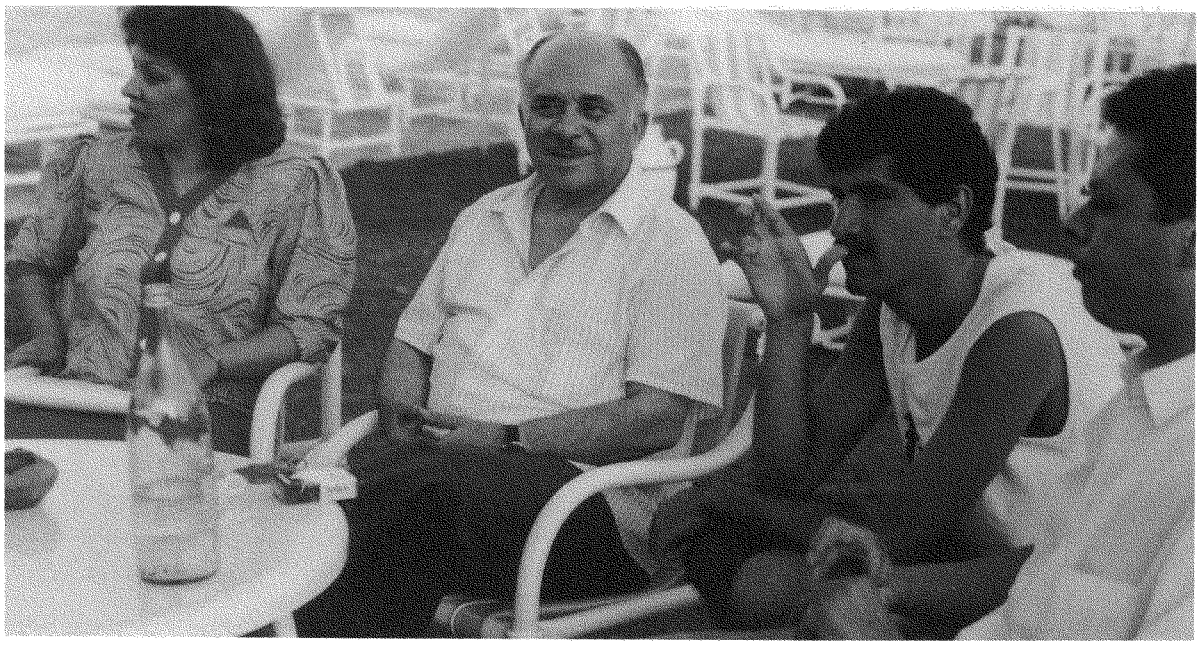

مع سماح وزوجة الراحل فؤاد التكرلي في تونس

الالتزامُ القومي لسهيل إدريس وتأثُّرُه بالفلسفة الوجودية جعلاه من المدافعين عن الوجود العربي في ضوء تلك الفلسفة الوجودية الحديثة آنذاك، والقائمة على مبدإ احترام الوجود، بمعنى الارتداد على الفلسفات الجوهرية التي تجعل من الجوهر قيمةً عامةً وشاملةً، وتجعل من تجريد الأشياء من طوابعها الفردية سنّةَ الوجود: فتقول بالإنسانية لا بالإنسان، وبالوفاء لا بالوفيّ، وبالمحبة لا بالمحبّ... إلخ. عايش سهيل ادريس وجودَه العربي، إذن، انطلاقًا من المبدإ الوجودي القائم على احترام الوجود في وصفه وجودًا خاصاً. وأبرزُ ما أملاه هذا التزاوجُ بين القومية والوجودية على إدريس تمثَّلَ في دعوته إلى التزام قضايا المجتمع العربي ومشكلاته، سواءٌ عبر الفكر أو الأدب. وقد حملتْ ثلاثيتُه الروائية، **الحيّ اللاتيني** (١٩٥٣) و**الخندق الغميق** (١٩٥٨) و**أصابعنا التي تحترق** (١٩٦٢)، رؤيتَه إلى العالم، بما فيها من ضرورة الالتزام في الأدب انطلاقًا من التزام الوجود العربي الخاصّ، وذلك في إطارٍ جدليّ لا فكاك فيه لأيّ طرفٍ من طرفَي المعادلة من الآخر. فالأدبُ مدعوٌّ في نظره «إلى مرحلة جديدة من التعبير عن هموم الإنسان العربي في وضعه الوحدوي الجديد الذي يبني فيه مجتمعَه على أسسٍ صلبةٍ لم تكن متاحةً من قبل.» أما أديبُ العروبة فهو «خيرُ مَن يستطيع أن يُبرز من الكفاح أعمقَ معانيه، ويثير في النفوس القلقة أصدقَ أحاسيس الإيمان بشرف المقاومة، ويلهب الأرواحَ اليقظة، العطشى إلى التعبير عن أشواقها للحرية.»[١]

الالتزام الفكري والأدبي جاء، إذًا، متأثِّرًا بالوجودية الفرنسية، ولا سيّما وجودية سارتر المستندة إلى أقانيم ثلاثة: الالتزام، الحرية، المسؤولية. ذلك لأنّ الإنسان في سياق وجودية سارتر مسؤولٌ عمّا هو كائن، إذ تضع هذه الوجوديةُ الإنسانَ في مواجهة حقيقته وتحمِّله تاليًا المسؤوليةَ الكاملة لوجوده.[٢]

رواياتُ إدريس الثلاث عبّرتْ فنيّاً عن هذه الفلسفة التي كيّفها هو مع واقعه العربي انطلاقًا من التزامه القومي، فتابعت الثلاثيةُ رحلةَ البطل سامي في البحث عن نفسه الضائعة انطلاقًا من الخلفية الوجودية التي ترى أنْ لا قوةَ تستطيع أن تخلِّص الإنسانَ من نفسه إلاّ قوته هو وعزمه هو، ما عَكَسَ الوجهَ التفاؤلي لوجودية سارتر التي وصفها بأنها «مذهبُ عملٍ وحركة.»[٣]

غير أنّ أهمية سهيل إدريس الأدبية لا تكمن في توفيقه بين اقتناعاته الفكرية وأدبه، وإنما في **ترجمة هذه الاقتناعات** عملاً أدبيّاً تجديدياً يعكسه البناءُ الفنيُّ للثلاثية، الذي يشير إلى الفنّان الذي طبع مذهبَه أو فلسفتَه الخاصة بطابعه هو، مترجمًا من خلال هذه الثلاثية مفهومَه الحديث لعلاقة الأدب بالواقع والحياة.

فطن إدريس مبكّرًا، في مقال بعنوان «الأدب والحياة» عامَ ١٩٦٠، إلى أنّ الأدب ليس الواقع لأنّ الحياة أشملُ من الواقع، وأنّ الأدب لا يمكنه أن يحتمل كلّ شيء، وأنّ الفنّ يتطلّب أخيرًا تحويرًا للواقع وقدرةً على التخييل. الأديب هو مَن «يعمد إلى الخيال فيستمدّ من عوالم

---

١ ـ المرجع السابق نفسه، ص ١٦.

٢ ـ جان بول سارتر، **الوجودية مذهب إنساني**، ط١ (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٨٣)، ص ٤٦.

٣ ـ المرجع السابق، ص٩٠ .

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

جميلة يعوِّض بها عن تقصير وقائع الحياة وتفاهة أحداثها؛ فإذا قدّم لنا بعد ذلك أدبَه، شقّ علينا أن نميِّز فيه الحقيقيَّ من الخيالي، والواقعيَّ من المتصوّر.»[١]

لم ترتبطْ تجديديةُ إدريس في الأدب بنزعته القومية أو الوجودية بقدر ارتباطها بمفهومه الخاصّ للأدب وعلاقته بالحياة، وبفنّيته التي أفادت من خبراته الحياتية والوجودية والفكرية. فالنزعة القومية في الأدب سادت على امتداد العالم العربي، وكانت الروايةُ التاريخية مقدّمةَ هذه الإنتاجات التي عبّرتْ عن هذه النزعة بدءًا من الثلث الأخير من القرن التاسع، مع سليم البستاني وجميل المدوّر وفرح أنطون وجرجي زيدان ونقولا الحدّاد وسواهم. غير أنّ هذه النزعة القومية لم تجعلْ هذه الروايات روايات بالمعنى الفني التخييلي الحديث للرواية. وفي المقلب الآخر يلاحَظ أنّ الوجودية التي لاقت رواجًا في المحافل الأدبية اللبنانية، في القصة والمسرح والرواية، بدءًا من العقد الخامس من القرن العشرين، لم تساهم على الصعيد الأدبي إلاّ في تخليد أسماء ضئيلة من القاصّين والروائيين اللبنانيين الذين اصطبغتْ بعضُ رواياتهم أو قصصهم بالوجودية، أمثال ليلى بعلبكي وإلياس الديري وفؤاد كنعان ويوسف حبشي الأشقر وجورج شامي... إلخ. إذ ساهم كلٌّ من هؤلاء في دفع الرواية إلى مداراتها الحداثية، في حين أنّ الالتزام السياسي المتأثّر بعقيدةٍ فلسفيةٍ محدّدة، كالقومية أو الماركسية مثلاً، كان يُوقِعُ الأديبَ أحيانًا في التطرّف والمغامرة، ويبعده عن خلود اسمه في عالم الأدب عمومًا، والرواية خصوصًا.

ريادةُ إدريس في عالم الرواية الفنية الحديثة قامت، شأنه شأن سواه من الرياديّين في لبنان والعالم العربي، من ثورته على القالب الروائي التقليدي، ومن إيمانه بالالتزام الحرّ لدى الفنّان، رغم دعوته إلى الالتزام في الأدب وإيمانه برسالته. والمفهوم الجديد للأدب عبّر عنه سهيل إدريس بقوله: «لقد كان أدبُنا الكلاسيكي يصوّر البشرَ على غير حقيقتهم إذ يتجاوز بهم أوضاعَهم البشريةَ ويرفعهم إلى رتبة المثال، فينظر إليهم الناسُ من بعيد معجبين مشدوهين، ويداخلهم اليأسُ من أن يصبحوا مثلَهم أبطالاً. أما اليوم، فليس هناك بطلٌ منعزلٌ إلاّ وله هدفُه الإنساني، وله صداه في مواطنه.»[٢] فالروائي الحديث، بحسب إدريس، يجد نفسَه «أمام كائن شديد الغنى، لكلّ نزعةٍ من نزعاته قيمة، ولا يمكن أن يُطرح منه جانبٌ، ويؤخَذَ آخر. فالواقع أننا لا يمكن أن نعرّف البطولةَ إذا لم نعرفْ من أيّ جُبنٍ هي منبثقة.»[٣] وهو كلامٌ يذكّر بمواقف عدد من الروائيين اللبنانيين التجديديين الذين تأثّروا بالوجودية، شأن ليلى بعلبكي التي أشارت إلى الواقع «الجديد» لتلك المرحلة بقولها: «والآن، وكلُّ إنتاج، كلُّ جديد في الأدب والفن والعلم، نقاومه نحن، إنْ لم يساهمْ في خدمة الإنسانية ومساعدتها في منحها حريةَ استمرارها. البطل اليوم، بطلنا، هو الإنسانُ العظيمُ العظيم حينًا، والتافه التافه حينًا آخر. بطلنا هو الإنسان العادي، الذي تشدّه الأرضُ إلى قذارتها، فيغوص فيها، وتدعوه السماءُ إلى أنوارها، فتتحدّى عينُه الشمسَ في الظهيرة.»[٤]

بطلُ سهيل إدريس في ثلاثيته تتنازعه قوًى ورغباتٌ متنافرة. ذلك لأنّ الثلاثية ما هي إلاّ تعبيرٌ عن رحلة هذه الذات في البحث عن ذاتها في المحيط المجتمعي والأُسري العربي أولاً، وفي المحيط الغربي لاحقًا. فالبطل سامي في **الخندق الغميق** عاش طفولته تحت ضغط التقاليد الأُسرية المحافظة من جهة، وتحت ضغط حياة المعهد الديني في وصفه طالبَ مشيخةٍ من جهة ثانية. الطفل سامي، الذي دخل المعهدَ الديني بإرادته، تأثّرًا بوالده الشيخ وبالمناخ الديني للأسرة، سرعان ما راح يشعر بعبء الجبّة والعمّة على جسمه الصغير. لكنّ هذا العبء راح يعني فنيّاً عبءَ العادات والتقاليد المتشددة، حيث تَكْثر الممنوعاتُ، ويَكْثر مقابلَ ذلك الشعورُ بالكبت والحرمان، وحيث الحبُّ حرامٌ، والصداقةُ بين الفتى والفتاة حرامٌ، وارتيادُ السينما حرامٌ، وسفورُ الفتاة حرام...إلخ.

القيم الوجودية للكاتب، ولا سيما إيمانُه بالحرية المسؤولة، ترجمها تطورُ شخصية سامي الطفل في **الخندق الغميق**، تلك الشخصية المتحوّلة من الطاعة والانقياد إلى التمرّد والثورة اللذين بلغا أوجَهما يومَ قرّر خلعَ الجبّة والعمّة. ففي هذه الثورة صرنا نلمس كقرّاء بذورَ التمرّد المسؤول، المتسلّح بالصراحة والاستقامة والمنطق، بعكس سلوكيات أخيه الأكبر فوزي الذي قاده التحايلُ على وضعه بالكذب تارةً، وبالخداع طورًا بغيةَ كسب رضا الأب، إلى حياةٍ ماجنةٍ مستهترة.

تحوّلاتُ شخصية سامي في طفولته وحداثته في **الخندق الغميق**، في موازاة الشخصيات الروائية الأخرى من داخل الأسرة أو من خارجها، راحت تشير إلى تقصّد الكاتب نزعَ الخصائص الثابتة عن الشخصية الروائية لصالح الشخصية الدينامية المتحرّكة ضمن شروطها البيئية والاجتماعية، وتاليًا اقتحام أسوار الأسرة الأبوية البطريركية التقليدية وفضح ما يختفي وراءها من آفات. وتمثّلتْ فنيةُ

---

١ ـ سهيل إدريس، **مواقف وقضايا أدبية**، ط١ (بيروت: دار الآداب، ١٩٧٧)، ص ٣٨.

٢ ـ ٣ ـ المرجع السابق نفسه، ص١١٤، ١١٣.

٤ ـ ليلى بعلبكي، **نحن بلا أقنعة**، ط١ (بيروت: منشورات الندوة اللبنانية، ١٩٥٩)، ص ٢٤.

مع عايدة في عمّان ١٩٩٤: عناقٌ ووردة!

إدريس أكثرَ ما تمثّلتْ في إيحاء هذه الآفات انطلاقًا من حيوات الشخصيات ومن منطق أفعالها، عوضًا عن استعراضها الفجّ. كما مثّل صراعُ الذات مع ذاتها، الذي بلغ أوجَه في **الحيّ اللاتيني**، إحدى البنيات الفنية التي استند إليها المؤلِّفُ لتبيان هذه الآفات. فقد قام البنيانُ الفني في **الحيّ اللاتيني** على خطّين متقابلين: علاقة البطل مع ذاته، وعلاقته مع المرأة. وكلُّ تطوّرٍ لأحد هذين الخطّين بدا مؤثِّرًا في تطوّر الخطّ الآخر ومتأثِّرًا به، في علاقة جدلية، راح البطلُ يبدو معها أكثرَ وعيًا بذاته وبمحدِّدات هذه الذات التي خرجتْ في السياق الفني للرواية على إطارها الخاصّ أو الشخصي لتدخل الإطارَ الاجتماعي الإنساني العامّ.

ففي هذه الرواية بدا السفرُ إلى فرنسا للتخصّص العلمي بالنسبة إلى سامي وسيلةً للتخلّص من عبء الماضي من جهة، وفرصةً لولادةٍ جديدةٍ من جهة أخرى. غير أن الغرب عنى له في البداية المرأةَ والجنسَ والحريةَ غيرَ المشروطة. إلاّ أنّ خيبات البطل مع المرأة كانت تدفعه إلى الارتداد على ذاته عبر مونولوغات دالّة تشير إلى عدائية ناتجة من شعورٍ بالنقص حيال الغرب، محدّدة القيود ورواسب الماضي بعمق. فحين أخلَفتْ إحدى الفتيات الفرنسيات موعدَها معه صار يتساءل: «ألأنّ الفتاة أخلفتْ موعدها، ينبغي أن أخضع لهذا الشعور البائس؟ وهل هنّ جديراتٌ بالاحترام، كلُّ أولئك الفتيات الفرنسيات اللواتي يسُقن هذه الحياة العابثة الفارغة؟» (ص ٤٢).

لكنّ الحبّ ـ المفصل في الرواية، حُبَّ البطل لجانين مونترو، الذي بدا كأنه وحّد في وقتٍ من الأوقات ذاتَه المنشطرةَ بين حضارة الشرق التي ينتمي إليها وحضارةِ الغرب التي احتلّ بها احتكاكًا مباشرًا، سرعان ما راح يَكْشف أنّ الطريق نحو توحّد الذات واكتشافها طويلٌ وشاقّ. فالرسالة التي كتبها سامي إلى جانين خلال إجازته في الوطن، متنكِّرًا فيها لعلاقة الحبّ التي جمعتْ بينهما وللجنين الذي حملتْه منه، جاءت مثلاً لتعكس تأصّلَ الماضي في ذات سامي، وازدواجيتَه التي بدا كأنه تخلّص منها. وقد وردتْ هذه الرسالة بعد مونولوغات داخلية للبطل كَشفتْ قبوعَ الضمير الشرقي في زاوية من زوايا نفسه. فإذا به يتساءل بعد هذا الحوار مع النفس إنْ كان الصوتُ الداخلي الصادح في داخله صوتَه هو، أمْ صوتَ أمه المستنكرة أساسًا ارتباطَه بأجنبية. يصف الراوي إذّاك حالَ البطل قائلاً: «هي التي تكلّمتْ، أمْ هو، أمْ شخص آخر لا يعرفانه؟... إنه لا يدري. لقد سمع كلامًا، ولا يدري أسمعه بأذنيه أمْ بأعماقه؟» (ص ٢٣٣). تكمن جمالية هذه المونولوغاتُ في أحد مستوياتها بما راحت تمثّله الأمُّ في السياق الفني للثلاثية: فالأم هذه «ليست أمّاً حقيقيةً للبطل وحسب، وإنما هي أيضًا الماضي بمختلف إيديولوجياته، لا بل العالم الذي ينمحي فيه الفردُ في المحيط الاجتماعي الأكبر: الأسرة أحيانًا، والوطن أحيانًا أخرى، والشرق بمشاكله أحيانًا ثالثة.»[١]

النذالة التي رآها البطلُ في مرآة نفسه، نتيجةً لتنكّره لحبه، شكّلتْ في الرواية محكّاً من المحكّات التي دفعتْه لاحقًا إلى إدراك خطئه وللمة نفسه الضائعة والتحرّر من أثقال الماضي والنظر إلى المستقبل... وذلك في موازاة الإيمان القومي الذي أتاح له، ولغيره من

١ ـ جورج أزوط، **سهيل إدريس في قصصه ومواقفه الأدبية**، ط ١ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٩)، ص ٩٧.

الشباب العربي في الغرب، فرصةَ العثور على ذواتهم الضائعة. كأننا بالبطل وقد تحقّقتْ خلال مساره رؤيةُ فؤاد، القومي العربي، حين قال له: «لا بدّ أن نرتكب كثيرًا من الحماقات قبل أن نجد أنفسَنا...» (ص٨٧).

ترانا في الجزء الثالث من الثلاثية، **أصابعنا التي تحترق**، أمام البطل وقد غدا أكثرَ توازنًا مع نفسه بعدما رسم أهدافَه القومية، ورسم لنفسه إطارًا للعمل والكفاح أوسعَ من الحدود الضيقة التي عاش فيها. لم يعد الصراع داخليّاً، بل تحوّل إلى صراع من أجل الوطن العربي الكبير، وإلى صراعٍ ضدّ الغرب الاستعماري، أي الغرب السياسي والاقتصادي.

جسّد سهيل إدريس فنيّاً البعدَ التفاؤلي للوجودية المؤمنة بالإنسان. وكان بفنّه الروائي كاتبًا ملتزمًا قضايا مجتمعه، لكنْ من دون أن يتعارض هذا الالتزامُ مع فنية العمل. كان عملُه الروائي، بحسب تعريف سارتر للعمل الأدبي عمومًا، تقديمًا خياليّاً للعالم «في حدودِ ما يستلزم من الحرية الإنسانية.» (**ما الأدب**؟ ص ١١٣) كما تميّزتْ ثلاثيتُه الروائية، ذاتُ الاتجاه الوجودي، بافتراقها عن الاتجاه الوجودي لبعض الإنتاج الروائي اللبناني الذي تمحور حول معنى الحياة وجدواها في إطارٍ تشاؤميّ. ذلك لأنّ إدريس نظر إلى الحياة من منظور القيمة التي يُسْبغها الفردُ على حياته، التي تبدّت من المنظور الفني للثلاثية حياةً جديرةً بأن تعاش. فانطوت الثلاثية على نزعة تفاؤلية، وذلك رغم كلّ التخبّطات الإنسانية لشخصية البطل ولغيره من الشخصيات، ورغم مختلف المظاهر المظلمة في المجتمع البطريركي الذكوري العربي التي كشفتْ عنها الثلاثية. ثم إنّ تحرّر البطل الإدريسي من أثقال هذا المجتمع واكبتْه دعوةٌ مبطّنةٌ إلى تحرير المرأة تجلّت في مساندة سامي في **الخندق الغميق** لأخته هدى كي تنزع الحجاب وتتابع تعليمَها العالي وتختار شريكَ حياتها بنفسها، وكذلك في تخصيص المؤلف خمسة فصول من فصول الرواية العشرة لهدى كي تعبّر عن ذاتها بصوتها هي ومن منظورها هي للعالم (فيما جاءت الفصولُ الخمسة الباقية بصوت الراوي وبصيغة ضمير الغائب). وانطبق الأمرُ عينه على رواية **أصابعنا التي تحترق**، التي انتقل الكلامُ في القسم الثاني منها إلى إلهام راضي، لتتابع كراويةٍ حوادثَ الرواية من منظورها هي؛ فكانت دعوة فنية لادريس لتحرير الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، من نفسه المزيّفة لصالح النفس الحقيقية. لكنّ بلوغ النفس الحقيقية لم يبدُ بحسب خطاب الثلاثية مسألةً ذاتيةً صرفة أشبهَ بالفردية الحالمة، بقدْر ما بدا مرتبطًا بالتعاون والعمل الجماعي لخرق الأسوار وبلوغ الحرية. كأنّه برسالته يقول إنّ قيود الذاتي والفردي في عالمنا العربي مشروطة بتلك القيود التي يرزح تحتها هذا العالم.

جريدة النهار، ٢٠٠٨/٢/٢٠

مجلة الآداب والأدباء العراقيون ____________ سامي مهدي

حين نتحدث عن مجلة الآداب هنا، فإنما نتحدّث عن الفقيد الدكتور سهيل إدريس في المقام الأول: فهو مؤسِّسُها، ورئيسُ تحريرها طوال أربعين عامًا (١٩٥٣ ـ ١٩٩٢)، وهو من وضع مبادئها الأساسية، ومن اختطّ منهجها الأدبي قبل أن يتغير قليلاً في عهد ولده سماح، وهو مَنْ صعد بها إلى مرتبة المجلة الأدبية الأولى في الوطن العربي، المجلة التي ملأتْ فراغًا كبيرًا في الحياة الأدبية العربية، في وقت كانت فيه مجلةُ **الأديب قد ترهّلتْ**، واختفت مجلتا **الثقافة والرسالة**، ولم تعد ثمة مجلةٌ عربيةٌ قادرةٌ على استيعاب التحولات التي كانت تحدث في الأنواع الأدبية وتتمخّض عن عصرٍ جديدٍ للأدب العربي.

وحين نتحدث عن علاقة الأدباء العراقيين بمجلة الآداب، فإنما نتحدث عن علاقتهم بالراحل الدكتور إدريس في واقع الأمر. فقد كانوا يشعرون دائمًا بأنّ لهم علاقةً خاصةً به وبمجلته، وكانت مجلتُه تُوليهم عنايةً متميزة، وتستقبل أقلامَهم بترحاب وحنو، وتفتح لهم صفحاتِها بكرم، وتَحْرص على متابعة الأحداث الثقافية والأدبية في بلدهم دون أن تحابي الأنظمةَ الحاكمةَ فيه، وتخصِّص لهم حصةً وافيةً ومعبّرةً في أعدادها الخاصة التي كانت تُعِدّها من حين إلى حين. بل لقد كانوا يتعاملون معها وكأنّ لهم «حقّاً» فيها، لا تدري على أيّ أساس يقوم وبأيّ منطق يسوّغ. وربما كان نمطُ علاقة الفقيد بهم يسمح بنشوء مثل هذا الشعور لديهم: إذ كان يراسلهم، ويتفقّدهم، ويستقبل في مكتبه مَنْ يزور لبنانَ منهم، ويزورهم أو يتصل بهم حين أصبح قادرًا على زيارة العراق، وكان يُعنى بما يُرسِلون إليه من نتاجاتهم. وكانت لديه حاسةٌ لا تخطئ في اكتشاف الموهوبين والواعدين منهم وتقديم نتاجهم للقراء العرب، وما أكثرَ ما نشرتْ دارُه، دارُ الآداب للنشر، من كتبهم ومؤلَّفاتهم. ولم يقتصر هذا على جيل معين من أجيالهم الأدبية، أو أدباء جماعة معينة من الجماعات السياسية العراقية، بل شمل كلَّ الأجيال وكلَّ الجماعات، دون تفريطٍ بمقاييس الجودة والإتقان.

مع فخري قعوار الأمين العام السابق لاتحاد الكتّاب العرب: تكريم الآداب في الأردن عام ١٩٩٤

قد تكون المجلةُ أوّلتِ الأدباءَ العربَ الآخرين القدر نفسَه من الرعاية؛ فهي مجلة عربية قبل كلّ شيء. ولكنْ مع ذلك ظلّ ذلك الشعورُ يلازم الأدباء العراقيين. ولذا تعلّقوا بها، وخاصةً حين استوثقوا من مواقفها الوطنية والقومية، والتزامها بحرية الفكر والإبداع، وبُعْدِها عن مواطن الشبهات، وعدم محاباتها للأنظمة الحاكمة في الأقطار العربية. وهكذا أخذوا يترقّبون صدورَ أعدادها ووصولَها إلى العراق ونزولَها إلى أسواقه. وكانوا إذا تأخّر نزولُ عدد من الأعداد يقلقون ويستفسرون، ويذهب مَنْ يستطيع منهم أن يذهب إلى «رقابة المطبوعات» ليقع على السبب: فإذا كان وجودُ مادةٍ أو أكثر مما يعترض عليه الرقيبُ أو يتلكّأ في قبوله، ناقَشَه في أمرها، وتشفّع للمجلة عنده، وربما اقترح عليه أن يَقْطع الصفحة أو الصفحات التي نُشرتْ فيها المادة ويسمح بتوزيعه! فإذا لم تُفْلح هذه الجهودُ وقرّر الرقيبُ منعَ العدد، التفت الأدباءُ هذه المرة إلى الموزِّع للحصول على نسخةٍ أو أكثر منه، وربما جاءهم مسافرٌ بنسخةٍ أخرى أو أكثر، وعندئذ تتداول الأيدي النُّسَخَ المسرَّبةَ كما تتداول منشوراتِ الأحزاب السرية. وما أكثرَ ما كانت الرقابةُ تعترض على موادّ تنشرها الآداب بسبب مواقفها القومية المعادية للاستعمار والصهيونية والاستبداد، إلى الحدّ الذي جعل بعضَ الأدباء يقترح على الدكتور إدريس إصدارَ طبعاتٍ خاصةٍ بالعراق، كما قرأنا في إحدى رسائل السيّاب إليه.

لقد احتضنت المجلةُ الأدباءَ العراقيين منذ عددها الأول، وظهرتْ على صفحات الأعداد التي صدرتْ خلال سنتها الأولى أسماءُ العشرات منهم : شعراء وقصّاصين ونقّادًا وفنّانين وكتّابًا ومعلّقين. وكان للشبّان من هؤلاء الحصّةُ الأوفى، انسجامًا مع رسالتها في تحديث الأدب العربي. فأبرزُ الأسماء الشعرية التي ظهرتْ في تلك الأعداد: نازك الملائكة، وعبد الوهاب البيّاتي، ورشيد ياسين، وخالد الشوّاف، وعدنان الراوي، وعبد القادر رشيد الناصري. أما بلند الحيدري فقد آثر في حينه أن ينشر فيها نقدًا فنيّاً للمعرض الثاني الذي أقامته «أسرةُ بغداد للفن الحديث» التي كان جواد سليم أبرزَ فنّانيها. وكان أبرز مَنْ نشر قصصًا في تلك الأعداد: ذو النّون أيّوب وعبد الملك نوري ومهدي عيسى الصقر وشاكر خصباك ومحمد روزنامجي. أما جعفر الخليلي وفؤاد التكرلي وغائب طعمة فرمان فكانت لهم مشاركاتٌ أخرى غير القصص. أما الكتّاب والنقاد الذين ظهرتْ أسماؤهم في تلك الأعداد فأبرزهم: محمد مهدي البصير ومصطفى جواد وعبد العزيز الدوري ونهاد التكرلي وجعفر آل ياسين وفؤاد الونداوي وصالح جواد الطعمة وجلال خيّاط وفؤاد طرزي وعبد الوهاب الأمين. وأما الفنانون التشكيليون فأبرزُهم شاكر حسن آل سعيد وإسماعيل الشيخلي وعطا صبري. وأبرزُ المسرحيين كان حقي الشبلي ويوسف العاني.

ثم لم تلبث المجلةُ أن استقبلتْ أسماء عراقيةً أخرى في سنتها الثانية، في مقدمتها: محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السيّاب وبلند الحيدري وصفاء الحيدري وكاظم جواد وحسين مردان ومحمد جميل شلش وزهير أحمد وعبد الصاحب الملائكة (من الشعراء)، ونزار سليم ومحمود عبد الوهاب وغانم الدباغ (من القصّاصين)، وعبد الحق فاضل ومحيي الدين إسماعيل (من النقّاد)، ومحمد القبانجي وسلمان شكر وحكمة ممتاز (من الفنّانين). ولا نغالي الآن إذا قلنا إنّ مجلةً تَظْهر فيها كلُّ هذه الأسماء العراقية (مع عشراتٍ أخرى لم نَذْكرها) في أول سنتيْن من عمرها لتبدو مجلةً عراقيةً بامتياز! فأصحابُ هذه الأسماء هم صفوةُ الأدباء والفنانين والمثقفين العراقيين في تلك الحقبة، وقد جمعتهم الآداب على صعيدها بشكلٍ لم تكن تفلح في جمعه أيةُ مجلةٍ عراقية.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

على أنّنا ينبغي أن نلاحظ أنّ أغلب أصحاب الأسماء التي ذكرناها كانوا من الشباب الساعين إلى تحديث الأدب والفنّ في العراق، ولم يجدوا في حينه منبرًا أفضلَ من الآداب للتعبير عن أفكارهم وعرض تجاربهم الجديدة. فالمجلات الأدبية العراقية كانت ما تكاد تَظْهر حتى تُغْلَق، ولم تكن ثمة مجلاتٌ عربيةٌ يمكن أن تعطيَهم المساحةَ التي أعطتها الآداب، وتوفّرَ المناخَ الحرَّ والحيَّ الذي وفّرتْه. كان السيّاب والبيّاتي ونازك الملائكة وبلند الحيدري يجتهدون في كتابة شعر عربي حديث وبلورة تجاربهم على صعيد كتابة الشعر الحرّ (قصيدة التفعيلة). وكان عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي ونزار سليم ومهدي عيسى الصقر وشاكر خصباك ومحمد روزنامجي ومحمود عبد الوهاب يحاولون، كلٌّ من وجهة نظره واتجاهه الفكري والفني، تخطّي محاولات ذو النّون أيّوب وعبد الحق فاضل وجعفر الخليلي وكتابة قصة عراقية حديثة. وبينما انهمكتْ نازك الملائكة في التنظير لحركة الشعر الحرّ ووضع قواعد لكتابة قصيدة التفعيلة، كان كاظم جواد وسواه يتلمّسون الطريقَ لكتابة نقد «واقعي،» وكان نهاد التكرلي يحاول نقلَ المنهج النقدي الوجودي وتطبيقَه على الشعر والقصة. أما الفنانون التشكيليون، وأبرزُهم جواد سليم وأعضاءُ «أسرة بغداد للفن الحديث،» فكانوا يشقّون طريقًا جديدًا للفنّ التشكيلي العراقي، وكان شاكر حسن سعيد الصوتَ المعبِّر عنهم بكتاباته في مجلة الآداب.

ومن الملاحظ أنّ النشر في الآداب ساعد على تأجيج روح المنافسة بين الأدباء العراقيين، لاسيما الشعراء، حتى إنّ بعضهم عدّه امتيازًا لا يحظى به إلاّ الموهوبون الحقيقيون. وقد أدّى هذا إلى تنشيط حركة الجدل في ما بينهم، وكان جدلاً ساخنًا في أغلب الأحيان، كالجدل حول الأسبقية في كتابة الشعر الحرّ بين نازك والسيّاب. وكان بعضُ هذا الجدل يمتدّ إلى الصحف المحلية في العراق ويتردد صداه في مقاهي الأدباء، ويخرج أحيانًا عن طوره الأدبي فتشوبه الاتهاماتُ والطعونُ، ومن ذلك الجدلُ بين السيّاب والبيّاتي حول من هو «المبشِّر» بالشعر الحديث. وقد يبدو الآن أنّ هذا الجدل كان عقيمًا، ولكنّه كان في واقع الأمر مفيدًا ومثمرًا: فقد جعل الجميعَ يتحسّسون مواضعَ أقدامهم، ويحرصون على تطوير تجاربهم وإتقانها. وعندي أنّه كان ذا أثر كبيرٍ على السيّاب أكثر من غيره، فأدّى إلى تفجير مواهبه وحثّه على كتابة خيرةِ قصائده.

ليس هذا فحسب، فقد وفّرت الآداب للأدباء العراقيين الشباب نافذةً للإطلال على القرّاء العرب والتعريف بهم. فقد كانت الغالبية العظمى منهم مجهولةً في المحيط العربي، ولم تكن ثمة مجلةٌ أدبيةٌ أخرى، عراقية أو عربية، تساعدهم على الوصول إليه. صحيح أنّ مجلة **الأديب** كانت على استعداد لاستقبالهم والترحيب بهم، ولكنّ **الأديب** لم تكن بحيوية الآداب وقوةِ زخمها ولا بروحها الفتية الجديدة. وعدا ذلك أتاح النشرُ في الآداب لهؤلاء الشباب، أن يحتكّوا احتكاكًا مباشرًا بزملائهم في الأقطار العربية الأخرى، ويتعرّفوا على آرائهم وتجاربهم، ويدخلوا معهم في حوارات هادئة أحيانًا وساخنة أحيانًا أخرى، ويكتشفوا أنّ حلبة المنافسة لا تقتصر عليهم، بل هناك شعراء آخرون (مثل صلاح عبد الصبور، ونزار قبّاني، وكمال نشأت، ومحيي الدين فارس، ومحمد الفيتوري، ثم أحمد عبد المعطي حجازي، وخليل حاوي) لحقوا بهم في كتابة قصيدة التفعيلة وأخذوا ينافسونهم في ارتياد آفاقها، وهناك نقّادٌ لهم آراؤهم في ما يكتبون وعندهم ما يؤاخذونهم عليه، كمحمود أمين العالم. وهذا مما ألهب روحَ المنافسة فيهم وزادهم يقظةً ووعيًا وحرصًا على الإتقان والإجادة. ولعلّ من أكثر تلك الحوارات سخونةً ذلك الذي نشب على صفحات المجلة بين صلاح عبد الصبور والسيّاب، حينما انتقد الأولُ قصيدةً للثاني وتسقّط ما فيها من هفوات عروضية، ونعني قصيدة «في المغرب العربي.»

والواقع أنّ هذا كلّه كان جزءًا من حركة نقدية حيّة شهدتْها صفحاتُ الآداب في تلك الحقبة، ونشط فيها الحوارُ بين الأدباء العرب. وكان بعضُ أبواب المجلة الثابتة («الآداب تستفتي،» «النتاج الجديد» «مناقشات،» «قرأت العدد الماضي من الآداب») ميدانًا رحبًا له، وكان للأدباء العراقيين دورٌ بارزٌ فيه لا يضاهيه سوى دور زملائهم المصريين. وقد أسفرتْ هذه الحركةُ على صعيد الشعر عن ترسيخ حركة الشعر الحرّ، وتطوير تجاربها، وبلورةِ مفاهيمها، وذيوعِ صيت شعرائها، ومنهم الشعراء العراقيون.

ولكنّ الآداب لم تهتمّ بالشعر العراقي فحسب، بل كذلك كان شأنها مع القصة العراقية. فقد نشرتْ خلال سنتها الأولى قصصًا لكلّ من ذو النّون أيّوب، وعبد الملك نوري، وشاكر خصباك، ومهدي عيسى الصقر، ومحمد روزنامجي. ونشرتْ في سنتها الثانية لآخرين، منهم نزار سليم، ومحمود عبد الوهاب، وغانم الدبّاغ. أما فؤاد التكرلي فقد نشرتْ له المجلة فصلاً من مسرحية. ثم تجلّى اهتمام الآداب بالقصة العراقية في بحث للدكتور سهيل إدريس نفسه عنوانه «القصة العراقية الحديثة.» فقد نشر هذا البحث على مدى ثلاثة أعداد من أعداد السنة الأولى، وتتبّع فيه تطورَ القصة العراقية منذ عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٥٢، وتلمّس انعكاساتِ الأوضاع الاجتماعية والسياسية عليها. وأحدث هذا البحثُ صدًى واسعًا بين الأدباء العراقيين، ولاسيّما القصّاصين. فهو أول بحث أكاديمي شامل عن القصة العراقية، فكيف وكاتبُه باحثٌ عربي متخصِّص؟ لذا حظي البحث بالعديد من الملاحظات والتعليقات: قسمٌ

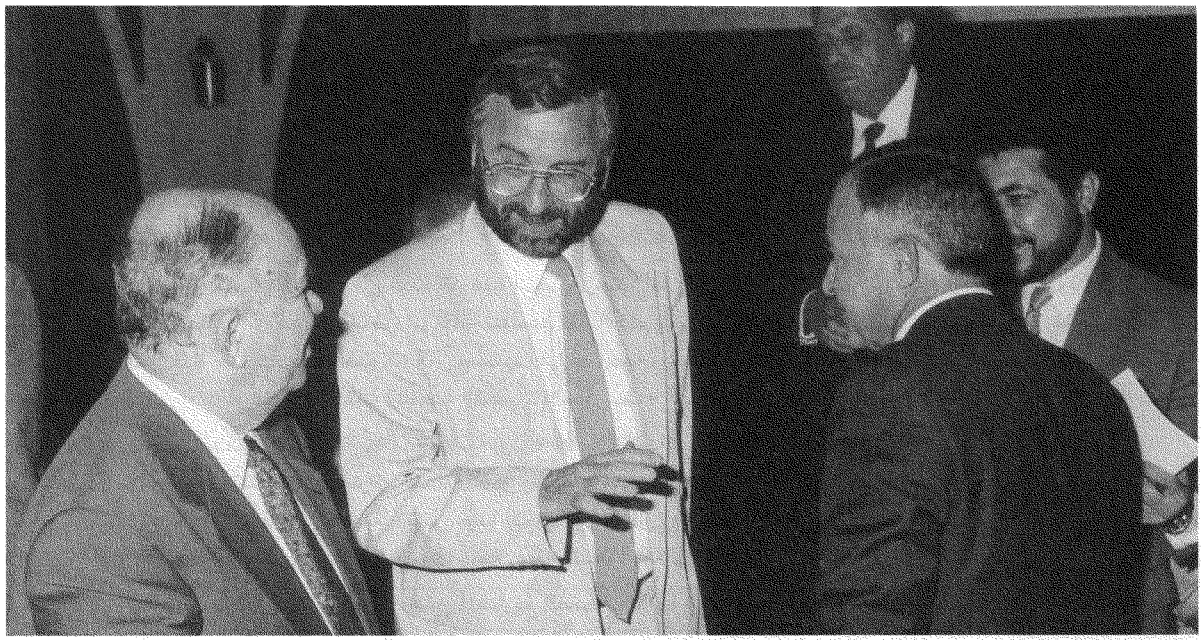

مع ليث شبيلات، عمّان ١٩٩٤

منها راضٍ يشيد بالتفاتة الدكتور إدريس إلى القصة العراقية وبالجهد الذي بذله في كتابة بحثه؛ وقسمٌ ساخطٌ لأسباب شخصية في ما يبدو؛ وبعضُها نبّه الدكتور إدريس إلى قصّاصين فاتته دراسةُ أعمالهم؛ وبعضُها لامه على دراسة أعمال آخرين لا تستحقّ الدراسة من وجهة نظرهم. وقد نشرت الآداب جميعَ ما وردها من هذه التعليقات في عددها السابع الصادر في تموز من ذلك العام، مع ردّ الدكتور إدريس عليها. وعدا ذلك نُشرتْ حول البحث مقالاتٌ وتعليقاتٌ في الصحف والمجلات العراقية منها: مقال نشره فؤاد التكرلي في مجلة **الأسبوع**، ومقال نشره أخوه نهاد التكرلي في مجلة **الثقافة الجديدة**، ومقال نشره صديقه عبد الملك نوري في الملحق الأدبي لجريدة **صوت الأهالي**. وكانت هذه المقالات متحاملةً كلّها، وخاصةً مقالة عبد الملك نوري. غير أنّ الدكتور إدريس لم يكترثْ لها، ولم يردّ عليها، ولم يتخذ من أصحابها موقفًا سلبيّاً. ففي العدد الخامس من المجلة نشر لعبد الملك نوري قصته «الصديقتان،» وفي العدد العاشر نشر رأيَ فؤاد التكرلي في أزمة المجلات الأدبية العربية إلى جانب رأيي جعفر الخليلي وغائب طعمة فرمان، وفي العدد نفسه نشرت المجلة ما كتبه أخوه نهاد في باب «قرأت العدد الماضي من الآداب،» وفي العدد الحادي عشر نشرتْ رأي نهاد في موضوع «لماذا، ولمن نكتب؟» وفي العدد الثاني عشر من أعداد السنة الثانية نشرتْ لفؤاد فصلاً من مسرحيته «أحدهم.» وهكذا.

ومهما يكن من أمر فإنّ لهذا البحث فضيلتين أساسيتين لاحظهما حسين مروّة في تعليقه عليه هما: الالتفات إلى القصة العراقية والتعريف بها وبمكانتها في عالم القصة العربية، والموضوعية والتجرّد في معالجة الأعمال المدروسة وإطلاق الأحكام عليها. وهناك فضيلةٌ ثالثة لعلّ الأدباء العراقيين كانوا يشعرون بها أكثرَ مما يشعر مروّة هي: تعزيز ثقة القصاصين العراقيين بأنفسهم وبنتاجاتهم، وإشعارهم بأنّ هناك مَنْ يتابعهم ويقرأهم في الأقطار العربية الأخرى. ولعلّ مما عزّز هذه الثقةَ فوزُ قاصٍّ عراقي ناشئ (في حينها) بالجائزة الثالثة في مسابقة القصة العربية القصيرة التي نظّمتها المجلة وأعلنتْ نتائجَها في العدد الأول من أعداد سنتها الثانية، وهذا القاصّ هو غانم الدبّاغ، وقصته هي «الظلام المخمور.»

أظنّ أنّنا سنطيل إذا واصلنا الحديثَ بالتفصيل عن اهتمام الآداب والدكتور سهيل إدريس بالأدب العراقي في هذه الحقبة والحقب اللاحقة. ولكنْ حسبُنا أن نذكر أنّ هذا الاهتمام لم يقتصرْ على حقبة معينة من تاريخ المجلة، أو جيل معين من الأجيال الأدبية العراقية، بل استمرّ حتى أصبح تقليدًا من تقاليدها. فقد أصبح من المعتاد أن تقدّم للقارئ العربي أدباء عراقيين جددًا من حقبةٍ إلى أخرى، وصار ناشئةُ الأدب العراقي يُقْبلون عليها وهم يتوخّون التشجيعَ منها ويَعدّون النشرَ فيها شهادةً لهم واعترافًا بوجودهم الأدبي. ومن هنا أصبحت الآداب مرجعًا لا غنى عنه من مراجع دراسة تاريخ الأدب العراقي في النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصةً الشعر. وما كان هذا ليكون لولا فقيدُنا الراحلُ الدكتور سهيل إدريس.

أُرسلتْ إلى الآداب **من بغداد**

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيها الأب المؤسّس

مِنْ أين لك يا سهيل كُلُّ هذه الطاقة الخلاّقة؟ — أحمد سويد

... وأخيرًا ترجّل الفارس.. ثم غادر ساحتَه على عجل. غادرها كنسمة. غادرها كومضة، تاركًا وراءه نحو نصفِ قرنٍ من ضجيج المعارك وضروب التجاريب.

على حد اليفاعة ألبسوه «عمّةً.» لم ينفرْ في البدء من هذه التجربة، حتى إذا استوعب دروسَها، واستساغ في ظلّها حلاوةَ الكلمة، غلبه التوقُ إلى جوّ أكثر رحابةً وأقلّ قيودًا. فانتقل إلى كليّة المقاصد طالبًا. ولم يلبث أن هوّم في وعيه الفتيّ حلمٌ طريٌّ حاول تجسيدَه واقعًا، فصار محرِّرًا في عدة صحف. ولكنّ طموحه كان يستنبت في جناحيه ريشًا وشهوةً للإقلاع. حتى إذا بدأ القلم يرتعش بين أنامله، ويتدفق محاولاتٍ من الإبداع الجميل (المقالة والقصة القصيرة)، صار حلمُه الأجملُ أن يكمل دراسته في باريس.

ها هو الآن في باريس. تَعلَّقَها. شدهتْه تيّاراتُها الثقافية، وذلك الفيضُ الإبداعي الذي تتجلّى روعتُه في مختلف الفنون. فراح وعيه يتفتّح فيها على ذلك المناخ الذي تُشيعه في أجوائها حداثةُ الفكر ونظرياتُ فلاسفتها ومذاهبُهم الفكرية الحديثة. وفي باريس، ذاق سهيل طعمَ الحرية بمختلف تجلّياتها، فأوغل في حيّها اللاتيني، وبدأ يتخفّف رويدًا من رواسب نشأته البيروتية المتزمّتة. حتى إذا حاز الدكتوراه في الآداب، واطمأنّ إلى تجربته الجديدة، عاد إلى بيروت حاملاً عدّتَه، شاهرًا سلاحَه الثقافي، وجرأتَه الاقتحامية، ليبدأ مسيرةَ كفاحة العنيد.

لم تُرْضِه، في البدء، إسهاماتُه المتواضعةُ في بعض المشاريع الصحفية لأنّها لم تحقّق له الاستقلاليةَ المبتغاةَ التي يطمح إليها كضمانة لنجاح مشروعه الرسالي، حلم حياته الذي كان يخطّط له. حتى إذا صارت الآداب هي المتجسّدَ الماديَّ لهذا الحلم، أخرجها من محلّيتها وقُطْريتها، وأعلنها مطلاً لكلّ المبدعين العرب، في مشرقهم ومغربهم.

لم تكن الآداب مجردَ مجلة عادية، بل كانت مشروعًا لتنقية الدم المتخثّر في عروق الثقافة العربية، وجبهةً مفتوحةً للكلمة المناضلة، للكلمة/الطلقة في وجه التخلّف والرجعية والاجترار والتزمّت والترهّل الفكري والنمطية، ومطلاً للمواهب الفتيّة الواعدة.

عبْرها، انطلق العطاءُ الإبداعيُّ بمختلف أشكاله، حاديًا لكلّ حركة تحررية تجديدية وتغييرية في العالم العربي. عبْرها، رافق الشعرُ ثوّارَ الجزائر: عاش معهم في معاقلهم. نهل من بطولاتهم ودفْق دمهم، ليفضحَ الجرائمَ المرتكبة بحق الإنسان والإنسانية. وانضمّ هذا الشعرُ إلى المقاومة الفلسطينية مقاتلاً ومشاركًا في معركة التحرير، يترجم آمالَها، يمجّد حجرَ طفلها الذي يُدْمي جبهةَ المحتل، ويمجّد أريحيةَ شبابها الذي يتسابق إلى شرف الشهادة، ويعرّي نازيةَ عدوّها وعنفَ وحشيته. وعبر الآداب انخرط الإبداعُ العربي في معركة الجنوب اللبناني: جابه، قاوم، ترجَمَ النبضَ المتمردَ لكلِّ حبةِ ترابٍ وكلِّ شتلةِ تبغٍ وجذعِ كلّ زيتونة دهرية، وكان صدًى ممجِّدًا لكلِّ «زلغوطةٍ» أمٍّ جنوبية تُطْلقها في وداع ابنها الشهيد.

ويومَ أطلق عبد الناصر ثورتَه، كانت الآداب «سَرِيّةً» مقاتلةً مع جيشه في جبهة المقاومة. عبرَها، هَتَفَ الشعرُ للثورة، وأَطلق لغتَه في وجه المتواطئين عليها، وفي وجه أصنام الأمة المتفرجين على العدوان، المستأنسين بمشاهد المجازر التي يرتكبها. وعبْرها، تمترست الكلمةُ بشتّى تمظهراتها في خنادق الصمود في بور سعيد، وانبرى ذلك الدفقُ من المشاركات الإبداعية في الشعر والقصة والمقالة ليكرّس مبادئَ الثورة ومنطلقاتها، ودستورًا للفكر القومي والريادة النهضوية، ونشيدًا للحلم الوحدوي يَجْمع تحت رايته الشتاتَ العربيَّ ويقود الخطى إلى التحرر الكامل من معوّقات الإسهام العربي في إثراء الحضارة الإنسانية.

كما خاضت الآداب معركةَ الحداثة بكفاءة مشهود لها، واحتضنت المواهبَ الفتيّةَ الواعدة، وخرّجتْ أجيالاً من المبدعين، بحيث لم يكن يُشْهد لمبدع بالتميّز إلاّ إذا أطلّ منها. ولم يكن نجاحُ الآداب هذا وتألّقُها، كثمرة للنضال الطويل، ليحمل سهيل إدريس على الخلود إلى استراحة المحارب؛ فلقد أصرّ على أن يستثمر فائضَ حيويته وزَخمَ حركيته الفكرية في مشاريع أخرى رديفة: فكَتَبَ القصةَ القصيرة، وأَنتج الروايةَ وأبدع فيها، وشارك في وضع المعاجم باللغتين العربية والفرنسية، وأنشأ دارَ الآداب للنشر التي استقطبت الكفاءات الثقافية على مدى الوطن العربي. ثم إنّه أسهم في ولادة اتحاد الكتاب اللبنانيين، بل كان له، من دون مبالغة، شرفُ أبوّته، وتولّى أمانته العامة. وتميّزتْ فترةُ ولايته بتطور الاتحاد، وبنشاطه الثقافي اللافت، وباستيعابه أبرزَ الطاقات الثقافية في البلد. كما تميّز بانطلاقه إلى المدى العربي، إذ أقام علاقات ثقافية/تعاقدية أحيانًا مع معظم اتحادات الكتاب العربية مشرقًا ومغربًا، ومع بعض الاتحادات في دول أجنبية صديقة.

... قُلْ لنا باللّه؟ من أينَ لكَ يا سهيل كلُّ هذه الطاقة الخلاّقة؟

وأخيرًا ترجّل الفارس، بعد أن سَلّم الأمانةَ إلى نجله الدكتور سماح، مطمئنّاً إلى أنّ الآداب ستظلّ في عهدته، وفي ظلّ الشباب الثائر، كما كانت: مدرسةً للنضال القومي والفكرِ النظيف والريادةِ الطليعية في الحداثة، والمنارةَ الهاديةَ في زمن الردّة وهشاشة البنيان، والصوتَ الصارخَ في وجه الظلامية وصنّاعِ الهزائم المتوالدة والموتِ السريري الطويل.

أُرسلتْ إلى الآداب

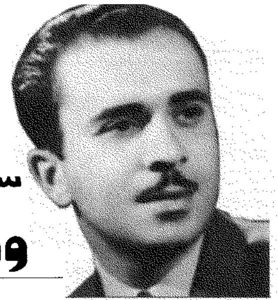

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسِّس

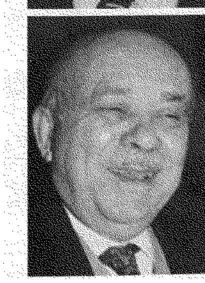

قصائد إلى سهيل إدريس*

رحيل في الآخرين

عمر شبلي

إلى روح فقيد الفكر والعروبة الدكتور سهيل إدريس

ظللْتَ تحاولُ ألاّ تسيرَ - ولو هرِمًا -
في جنازة حلمٍ سقيناهُ من دمنا العربيِّ وحبركَ
جيلاً فجيلا،
وها أنتَ في آخرِ الشوط
تَسْقطُ عن صهوةِ الحلمِ - لكنْ - جميلا
وتُبْصرُ في «زهرةٍ من دمٍ»[1] وطنًا ليس يأتي.
وقد كنتَ تدركُ كمْ قتَلونا،
وكنّا نقومُ من الموت حين نراكَ
على الحلمِ متكئًا وتسير
على الجرحِ متّكِئًا وتسير،
وكنّا نسير على نزفِ حلمِكَ سيرًا طويلا!

❖ ❖ ❖

ترجّلْتَ عن صهوةِ الحَرْفِ في آخرِ الشوط،
يا لَلْمدادِ الذي ما استقالَ من الفرح العربي الذي
سوف يأتي!
وجينين ذاكرةٌ لشهيدٍ
يدافعُ عنه ولا قد يعود إليه.
وكنّا نحاول في السنواتِ العِجاف المسيرَ إلى حيث
تعلن أنّ السِمانَ ستأتي،
ونَسهرُ في الزمهريرِ أمام مواقدَ جوْعَى لنارٍ
ونغفو دون غطاء
سوى ما تبقّى علينا من الحُلْمِ العربيّ.

❖ ❖ ❖

لقد مرّت خمسون عامًا،[2] وما كان في سجننا
العربيِّ سوى الأنبياء
وبعضِ اللصوصِ، وتهمتُهم أنّهم سَرَقوا النار
من جبلِ الآلهة.
سرقوا النارَ من «زوسَ»[3] للفقراء
وهذا الخراب الذي نحن فيه تقدَّمَ صوب السماء!
وأعلنت أنّ الذي قد زنى بالمدينة «أوديب»
كان الجذامُ على وجهِ «طيبةَ» يمنعها من مزاولةِ
الخصب،

---

* - أرسلتْ كلّها خصيّصًا لـ الآداب في ذكرى رحيل المؤسِّس.

١ - عنوان مسرحية لسهيل إدريس.

٢ - مرّ أكثرُ من خمسين عامًا على صدور مجلة الآداب.

٣ - زوس كبيرُ الآلهة في الأساطير اليونانية، وكان هو وحده يملك النارَ في جبل الأولب، وسرقها «سيزيف» وأعطاها لبني البشر، فغضب زوس وفرض عليه عقوبةَ حملِ الصخرة من الوادي إلى الجلجلة، فما إنْ يصل إلى القمة حتى تسقط الصخرةُ إلى أسفل الوادي، فيعيد حملَها، وهكذا إلى أبد الآبدين.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيها الأب المؤسّس

والكاهنُ العربيُّ الجديدُ شريكُ الزناة.
وقلنا سيَغْسلها المطرُ العربيُّ الذي سوف يأتي،
وكان السرابُ يخادِعُنا من جميع الجهات.
وكم مرَّ جيلٌ، ونحن نغسّلها بالدماء،
ونَجْلب ماءً لقطعاننا من جبالِ الأفاعي،
ونبحثُ عن خبزِ أطفالنا في «مكبّات» أطفالهم
في زمانِ التوحّد عند «المكبّ.»
ولا تنتهي السنواتُ العجاف، ولا النيلُ يأتي،
وإخوةُ «يوسف» يفتتحون السجون،
وها عمرُنا العربيُّ من القهر يمضي بنا في غيابة جبٍّ
نفسِّر أحلامَ كلِّ «عزيز» ذليل.

❖ ❖ ❖

وما كنتَ تملكُ غيرَ الذي قد سرقتَ من النارِ، من جبلِ الآلهة
طهوتَ عليها طعامَ العصاة
وأَطعمتَ كلَّ الذين على الدربِ كانوا جياعًا لخبزٍ جديد
وفجرٍ جديد.
لقد كنتَ ذاكرةً للذين رأوا وطنًا في الثقافةِ ينمو،
وبين السجونِ وبين الشظايا صَرَفْنا عصارةَ أعمرنا،
وكنتَ تقول لواحدنا:
«توكّأْ على جرحِكَ العربيِّ
بحُلْمِكَ، حتى ولو ما وصلت،
وليس لنا في الفجيعة غيرُ الصمود
وصنعِ الضمّاد من الغضب العربيِّ الأخير!»
وكنتَ تحرِّضنا أن نظلَّ عصاة،
وكنّا كمثلِ الطيورِ بأقفاصها
تطير ويبقى مداها الحديد
ونَبْحث في كلِّ شهرٍ[1] عن الخبزِ في
حبرِكَ العربيِّ الجميل.
لقد علّمَتْنا العواصفُ كم نحن كنّا بهذا الثرى راسخين،
وأيُّ الجذور لنا.
وكان لنا في السجونِ فضاء
له ما لقلبِكَ من شرفات!

❖ ❖ ❖

وها أنتَ يا وطني في الموانئ
من مرفإٍ مستحيلٍ إلى مرفإٍ مستحيل
ونسأله كيف تُفْضي الرياحُ إلى وطنٍ لا اتجاهَ له،
وبيروت قد خَدّرتْ عمرَها بالنبيذِ الغريب
وتَعْصر للغربِ أثداءها
تحت سقفٍ مريب!
وليس لنا غيرُ أوجاعِنا وانتظارِ المساء،
وكنّا نفتّش عن وطنٍ لا وجودَ له في الوطن.
لبستُ بلادًا ممزّقة ومشيت
أحاول ترقيعَ ما ظلّ من حلمي
(أيُّ معنى لحبٍّ بغيرِ هزيمة / أيُّ معنى لغار حراء بغير نبي؟).
وكنّا نرى فيكَ في كل شهر بلادًا جديدة
وكان أمامَكَ يَخْلع جيلٌ حديدَهْ!
تأمّلْ بذورَكَ كيف نَمَتْ!
كنتَ خبزًا لنا وقصيدهْ
لقد كنت مشكاةَ قنديلنا العربي!

❖ ❖ ❖

وقال الطغاةُ لنا:
أيُّ معنًى لعينيْنِ أو قدميْنِ بجوفِ السجون
وها نحن بعد فواتِ الرجاء
نفتِّش عن وطنٍ في السماء
وكيف سنُنْهي مهمةَ روما،
وصنعِ التوابيتِ والأضرحهْ.
وبغدادُ تسألنا عن خيولِ بني عَمِّنا،
وتضمّدُ بالنخلِ فتيانَها،
وتحرِّضهم أن يظلّوا عصاة.
لقد شَربوا فكرَكَ العربيّ
تمامًا كما شربوا ماءَ نهرِ الفرات.
توقّفَ قلبُكَ لمّا رأيتَ بني عمِّنا
يَنْحرون الخِرافَ لبوشَ وأطفالِ بغدادَ،
ثم دعَوْهُ ليحملَ نفسَ الحسامِ الذي ذُبِح اللّهُ فيه ببغدادَ!
ها هو يَرْقص رقصتَه البدوية، السيفُ في يده،
والخيامُ تقام لعمرو بنِ كلثومَ والمتنبّي وعنترةَ المتزيّي بزيِّ النساء

---

١ ـ كانت الآداب تَصْدر مرةً كلّ شهر.

وقد قدّموا لضيافتهِ ما تبقّى من النفطِ والقهوة العربية
وما ظلّ في الرملِ من أريحيّة.
فيا أيُّها الداخلون إلى الجرح لا تشمتوا!
يا سلالةَ مَنْ قدّموا اللّهَ للأجنبيِّ هديّهْ
سلالة مَنْ دلَّ «أبرهةً» أينَ مكةُ،
مَنْ دلَّ «بوش» على «العامرية»![1]

❖ ❖ ❖

وقد كنتَ تدرك أنّ العروبةَ سوف تمرّ على جُزُرِ الساحرات
ويَنْهش من لحمها ألفُ «سيكلوب»
والماءُ كان على البرج يربو
ويَلْمع خلف الدجى وطنٌ وحبيبَهْ.
فلا الحبُّ يفنى، ولا أنتَ تُغرى بغيرِ الخصوبهْ
ومزّقتَ عن جيلِنا الأغطيهْ
هما الحبُّ والخيرُ حُرّانِ لا يَقْبلان الإقامةَ في الأقبيهْ!

❖ ❖ ❖

أنا لستُ أرثيكَ، إنّ حضورَك مكتملٌ،
حيث في كنفِ الروح يغدو الغيابُ حضورا

وكان رحيلُكَ أجبرَنا أن نعدَّ ينابيعَنا واحدًا واحدًا.
تأخّرْ عن الموت فينا قليلاً،
فلسنا عصاةً بأرضٍ موات
وكنتَ تحاول كشفَ الطريق
بما ظلّ فيك من الأسئلهْ.
وقد كنتَ تمشي بعكسِ السراب
وصولاً إلى الغيمة المثقلهْ.
سهيلُ! استرحْ في خلودِكَ، إنّ الضحى
كان صُنْعَ يديكَ وصُنْعَ الذين بأقلامهم رافقوكَ
صعودًا صعودًا إلى الجلجلهْ!

البقاع الغربي

قصيدة الموت

محمود علي السعيد

إلى الغالي سهيل إدريس في رحيله المفاجئ

... وتركتَ في القلبِ المعنّى
بـالهواءِ الطلقِ
من قاموسِكَ العربيِّ
أشرعةَ الخلاصْ،
وصعدتَ سُلَّمَ مَنْ تبوّأَ
شرفةَ التاريخِ
في طبقِ الفصولِ،
فأورقتْ في الصمتِ أجنحةٌ
وماجت في سفوحِ شواطئِ الأقلامِ
أفرعةُ الاجاصْ.
غادرتَ شوقَ الأرضِ للأمطارِ،
في قلقٍ على أحلامِ مَنْ سقطوا
على جنباتِ عصفِ الموتِ.

يا أرقَ الوطنْ:
لِمَ لمْ تلوِّح باليدينِ
صراحةَ الطلقاتِ
في صدرِ المَدى
وتقولُ للولهى
على دقاتِ نزفِ الورد:
ما بالُ الندى
يتأبّطُ العهدَ الجديدَ
على مرامي الصيفِ
في دنيا الفراقْ؟
أشعلتَ في الروحِ المواقدَ
قبل أن يأوي إلى وكناتهِ
فرخُ اليمامْ.

١ ـ العامرية: الملجأُ الذي قصفتْه القواتُ الأميركيةُ في بغداد وقُتل فيه أكثرُ من ألفٍ وخمسمئة عراقي من المدنيين.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

قمْ يا سهيلُ!
فقد تجلّت في عروقِ صباحنا
ـ والهمُّ يقطر كالوباءِ المرِّ ـ
أرديةُ الصدى
من فرطِ ما باحتْ به الساعاتُ للطرقاتِ
من عامٍ لعامْ.
لا قطرةٌ تفضي إلى الأشجارِ
كي تبقى على وجدِ
اخضرارِ ربيعها؛
لا جمرةٌ للدفءِ .....لا
مرَّ المساءُ ولم تغمِّسْ
في رحيقِ الطقسِ أصبعةً من الـ.....
أقفلتَ شباكَ التواصلِ
في بطاحِ وجودكَ العلنيّ
يا وهجَ العناق.
قمْ يا سُهَيلُ إلى الذينَ
إليكَ مالوا
مثلما مالتْ على شمسِ القصيدةِ
أحرفُ الكلماتِ ... لا....
مَن فجَّر الخبرَ المجلجلَ
في فضاءِ وجودنا
المألوم بالطعناتِ؟ من؟ .....
أرّقتَ وجدانَ الأحبَّةِ،
يا نقيَّ العمرِ والأوراقِ
والعبقِ المسافرِ
في رحاب الموت!
يا وجعَ القدرْ:
ماذا جنيتَ من احتراقِ
خلاصةِ الأيامِ
في عصرٍ تدفّقَ
كارتفاعِ حرارةِ الفرحِ المعافى
في جهات عرينكَ المذبوحِ
من شظفِ الصورْ؟
قسِّمْ على قيثارةِ الآداب

وانشدْ في غيابِ الرونقِ المظلومِ مسطرةً
نقيس بطُهْرِها ألقَ الخطابْ!
ماذا جنيتَ من اصطفافاتِ العذابْ؟
القلبُ من عصفِ الفجيعةِ،
يا سليلَ مناقبِ الجمرِ المفتَّحِ
في غصونِ الثلجِ بالآهاتِ ذابْ!
ماذا تبقّى من صباباتِ القسائمِ
بعد هجركَ يا سُهيلَ الأفقِ
والنُّطقِ المُحلّى بالقُبلْ؟
جمِّعْ شتاتَ بُروقها في البعدِ
وارسلْها علاماتِ انتصارْ!
صُعِقَ النهارْ
لمَّا استفاقَ الليلُ عن نبأِ المقل!
ها فارسُ الخطواتِ،
دون إشارةٍ للفقدِ،
أودعَ للخلودِ حصانَهُ
وترجّلتْ منه القدمْ.
أرّقتَ صوتَ الريحِ
في صحراءِ أرقامِ الحساباتِ الجديدةِ يا.....
وأخافُ لفظَ الكلمةِ الورقاءِ يا.....
لأقولَ يا نبضَ العدمْ!
يا أهلَ لبنانَ المجلّي
في رباطِ الخيلَ، منْ
يسقي دماءَ وجودهِ
ليصفقَ البرقوقُ في أوصالِنا
إضمامةَ الذكرى،
ويبطل شائعاتِ جليدِ أيامٍ مضتْ
كالبرقِ في كبدِ السماءْ؟
مَنْ للمفارقِ بعدَ خطوةِ شمسكَ الحُبلى
بعشقِ الضوءِ، منْ؟
منْ للقراءةِ ـ والأجنّةُ أشعلتْ أطرافَها؟
مَنْ، يا قريبَ الدارِ، من؟
قلْ لي بحقِّ بُعادكِ الأبديّ..... لا...لا
قُربِك الشفقيّ ...لا....لا

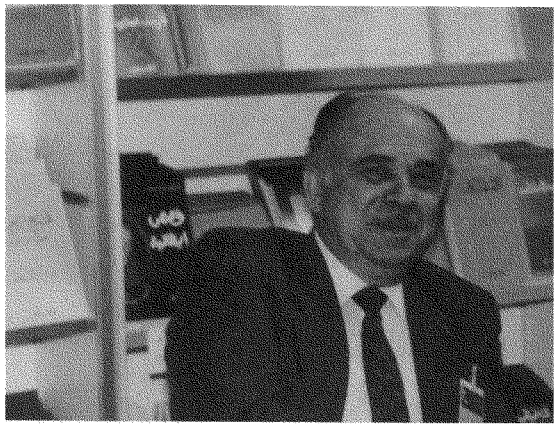

مَنْ ـ غيرَ ما أبقيتَ من وهجِ الجمالِ ـ
يقودُ عشّاقَ الكتابْ؟

❖ ❖ ❖

في بؤبؤِ العينينِ باقٍ
والصَبا همسٌ تَقَطّعَ ـ
مع شَغافِ حضورِه ـ
وترُ الربابْ،
الجوهرُ المخبوءُ في كَنَفِ الرمالْ
قُلْها على الملإِ المخضرمِ
باختصارِ الوقت: ما ماتَ الجوادُ،
ولم تمتْ منهُ الخصالْ!

دمشق

سماءُ الآداب — علي وهبة

سماءُ الآداب
تحتضنُ نجمَها الغافي
على معجمٍ هنا،
على روايات هناك،
على سيرةٍ لم تكتملْ فصولُها بعد!
لم يغادرْ سماءه
مازال هنا
بين دفّتَيْ كتاب
يجوال في **حيّه اللاتيني**
طيفٌ يمرُّ في ذكريات أصدقائه ومحبّيه.
أسهيل؟

أأنتَ النجمُ العربي؟
لا ...
بل أنتَ العربيُّ «النجم»
الذي استدلّت به العربُ على الآداب
فجعل لها دارًا، مجلةً،
وحروبًا ثقافية!
أحمِّلُكَ سلامًا
إلى إدوارد سعيد،
إلى سعدالله ونّوس،
إلى نزار قبّاني،
وإلى أناسٍ لم يعرفوا معنى الطائفية.

بيروت

بكائية مستوحاة من قصائد ماجد أبو غوش من ديوانه الأخير — محمد يعقوب

صباح الخير
أيها النائمُ بين يدي السحاب
الربيعُ يغطّي الشواهدَ والنوافذ
فانهضْ من نومك قليلا
ها أنا بين يدْكَ وعينيْك

أَحضرتُ لك أزهارَ النرجس
وأوراقَ العنبِ الطريّة!
انهضْ قد طال نومُك
وأنا عند عتبةِ القبر
قد طال انتظاري.

رام الله

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسِّس

رسائل إلكترونية وفاكسية في ذكرى د. سهيل إدريس

... سهيل إدريس كان علمًا ساطعًا في المجال الصحافي والفكري والأدبي. وإنّ ما أعطاه طوالَ حياته من جهد كانت له ثمارٌ تميَّز بإنضاجها. وإنّنا إذ نودِّعه اليوم، نفتقد إنسانًا نادرًا بإنتاجه ورفيعًا بمستواه... فقد كان الكلمةَ المجلوّة، والفكرةَ النادرة، والرأيَ الحصيف، والأدبَ العالي.

محمد البعلبكي (نقيب الصحافة اللبنانية)

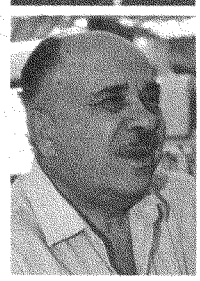

... سهيل إدريس أنشأ جيلاً في الفكر والأدب والصحافة يحمل اسمَه ومنتماه. وما كَتَبَ إلاّ بصدقٍ ورفعةٍ ونموذجية عُرف بها، وهو الذي عاش في كلِّ ما كتب. لقد أدرك لعبةَ الجِدّة في الكلمة، فهو يرقى بها إلى منابعها لتعود وعليها مسحةٌ من غرابة الأمل. إنّ سهيل إدريس لن يغيب عنّا بل سيبقى وجودًا بانيًا وعطاءً مجدّدًا نجده منّا في الخلجة، في النهضة، في السعي، في العمل الباني.

ملحم كرم (نقيب المحرّرين اللبنانيين)

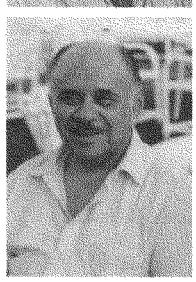

فقد لبنان اليوم الكاتب والأديب والمثقف والناشر سهيل إدريس بعد عمر طويل من الجهاد والنضال قَدَّمَ فيه نتاجًا أدبيّاً وعلميّاً كبيرًا أغنى المكتبةَ والثقافةَ العربيتين، وشكّل في جانبٍ منه عبر المعاجم اللغوية مرجعًا علميّاً لأجيال من اللبنانيين.

سهيل إدريس علمٌ من أعلام الفكر والثقافة في العالم العربي، ورائدٌ من روّاد العروبة الإنسانية المنفتحة الملازمة للديموقراطية والحرية والتنوع، ورمزٌ من رموز التطوير والتحديث في أفكاره وكتاباته المعبِّرة عن التزامه وإيمانه بالعروبة إطارًا جامعًا وبالقضايا العربية وعلى رأسها قضيةُ فلسطين والتصدّي للإرهاب الإسرائيلي.

يفتقده لبنانُ اليوم وقد ترك مخزونًا من الكتب والدراسات والأفكار والمنشورات. وتفتقده دُورُ النشر اللبنانية والعربية. كما يفتقده العربُ والمثقفون الذين عرفوه في أكثر من موقع ودولة.

عزاؤنا في تراثه وداره ومسيرته التي يكمّلها الصديق سماح إدريس، الذي نتوجّه إليه وإلى عائلته الكريمة بأحرّ التعازي، طالبين الرحمةَ للفقيد الكبير، آملين الاستمرارَ في مسيرته.

غازي العريضي (وزير الإعلام اللبناني)

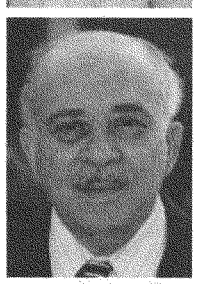

السيدة عقيلة المرحوم سهيل إدريس، وأبناء المرحوم رائدة ورنا وسماح إدريس، وآل إدريس الموقّرين

هناك رجالٌ يصبحون ظاهرةً وتعبيرًا عن وجدان أمة وتطلّعاتها. ولا أحدَ أحقّ بأن يوصَفَ بأنه ضميرُ ثقافة الأمة وطموحاتها من العزيز الراحل الأستاذ سهيل إدريس، الذي أمضى عمرًا من الكفاح من أجل إغناء المشهد الثقافي العربي، بما فيه المجيد، وبأزهى ما توصّلتْ إليه الحداثةُ من ألوان الأدب وأشكاله.

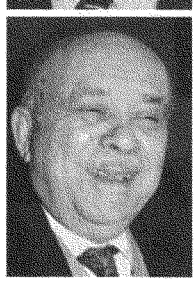

إنّ اللغة التي عشقها سهيل إدريس وعاش من أجلها وأبدع في إعادة خلقِها وإنتاجِها تبدو اليومَ، وللمرة الأولى في علاقتها معه، هي المعجبةَ العاجزةَ عن الكلام والوصف، وهي الحائرة في التعبير عن العرفان لرجلٍ كرّس حياتَه لخدمتها مزدهيًا بها، فإذا به اليوم يترك غصّةً في قلوبِ أبنائها وبناتها الخلّص الذين تخرّجوا من مدرسته الغرّاء.

كان يَعرف المكتبةَ العربيةَ بقضّها وقضيضها، ويعرف فورًا ما إذا كان العملُ المقدَّمُ جديدًا أمْ أنّه يتكرّر بعد عمل آخر. وكان المحطةَ الجميلةَ التي يستريح عندها مَنْ أضناه البحثُ والتعبُ، وأضناه أيضًا جهلُ مَنْ لم يقدِّروا قيمةَ بحثه؛ فإذا ما وصل إلى دار الآداب تلقّفه الأديبُ الحريصُ على كلّ جديد، الفرِحُ بالإبداعِ والبحثِ القيّم، فشكره على جهده ومضى إلى النشر دون سؤال.

هذا بالضبط ما حدث معي بعد أن أمضيتُ عشرَ سنوات أبحث من أجل كتابي **مئة عام من الرواية النسائية العربية**، عندما شعرتُ بحفاوة شيخ الأدب والنشر، صاحبِ **الحيّ اللاتيني**، بما قدّمتُ. لقد شعرتُ بأنّ عملي يستحقّ ليس عشرَ سنواتٍ من عمري فقط، وإنما يستحقّ عمرًا بكامله أيضًا!

لسنا هنا في معرض رثاء، ولكننا في معرض فقدانِ أحدِ أعمدةِ الثقافة والفكر العربي، الذي خَرَّج أجيالاً من الأدباء والمثقّفين والكتّاب.

أفضلُ ما يمكن أن نفعله دائمًا من أجل سهيل إدريس هو أن نَسْتحضرَه أنموذجًا في العطاء والانتماء والارتقاء إلى مستوًى عالمي.

إذا كان العملُ عبادةً، فإنّ الأستاذ سهيل إدريس قد أمضى عمرَه متعبّدًا زاهدًا إلاّ في دفع قضية الفكر والثقافة إلى الأمام.

ليتغمدْه اللهُ بواسع رحمته ويسكنه فسيحَ جنانه، ولنبقَ أوفياء لإرثه العظيم، عاملين على استمراريته مهما صعبت الظروفُ وتعاظمت التحدّيات. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الدكتورة بثينة شعبان، وزيرة المغتربين في الجمهورية العربية السورية

بكلّ الحزن والألم تنعى الجبهةُ الشعبيةُ لتحرير فلسطين، على أرض الوطن وفي كلّ مواقع اللجوء والشتات، المثقفَ العربيَّ والقوميَّ الكبير الدكتور سهيل إدريس الذي توقّف قلبُه عن الخفقان فجرَ ١٩ شباط ٢٠٠٨، بعد حياةٍ حافلةٍ بالعطاء والكفاح والتفاني من أجل قضايا الأمة العربية، وفي المقدمة منها قضيةُ فلسطين والوحدة العربية.

إنّ رحيلَ سهيل إدريس، المثقف والإنسان الذي قاتَلَ بالكلمة الصادقة والجريئة من أجل ثقافةٍ عربيةٍ ملتزمةٍ بقضايا وحقوق ومستقبل الأمة العربية وأجيالها، يشكّل خسارةً كبرى للشعب الفلسطيني وأحرارِ العالم كلّه.

إنّ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إذ تنعى الراحلَ الكبيرَ الذي ستبقى سيرتُه العطرةُ في عقول وقلوب شعبه وأمته، تتقدّم بأحرّ التعازي لعائلة الفقيد وأصدقائه، وتؤكّد أنّ مسيرتَه وتراثَه ونتاجاته الأدبية والفكرية ستبقى ملهمًا للأجيال العربية التي ستواصل الكفاحَ لتحقيق أهدافها السامية التي عبّر عنها بكلّ إخلاص وصدق الراحلُ الكبيرُ.

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، المكتب السياسي

العزيز سماح

النبأ محزنٌ لنا جميعًا، نحن الذين كانت الآداب مدخلَنا إلى الحداثة المعاصرة، وكانت أداةَ تكويننا وأداتَنا لتكوين الجيل التالي لنا. إنها الآداب، التي في استمرارها المتجدّد اليومَ، ومعكَ، استمرارٌ لكلّ تطلعاتنا التي تفتّحتْ مع الآداب ومع مؤسِّسها.

جورج طرابيشي (باريس)

الأصدقاء عائلة الفقيد الكبير، كبيرةٌ هي خسارةُ الأصدقاء وأهل المعرفة والنهوض وسائر العرب برحيل الدكتور سهيل إدريس. فقد ظلّ هذا الصديقُ الكبير المبدع، على مدى نصف قرن كامل، المناضلَ الفكري، والرائدَ الروائي، وأحدَ المؤسِّسين التاريخيين الكبار لبيروت كعاصمة للإشعاع. أطلق تيارَ الأدب الملتزم، ووَضَعَ الأدبَ في القلب من معركة النهوض، وجعل مؤسسةَ مجلة الآداب ودار الآداب حصنًا للرأي الحرّ والكلمة المضيئة؛ جعلها رائدةَ اللقاء بين النضال والإبداع في أنحاء العالم العربي. وسيكون عالمُنا في غيابه أقلَّ بهاءً وعطاءً شجاعةً.

معكم في عمق الأسى، ومعكم في هول الخسارة.

أدونيس، خالدة سعيد، أرواد إسبر، نينار إسبر (باريس)

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

عزيزي سماح إدريس

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبر! أرجو أن تتقبّل تعزيتي خالصةً . لقد كان والدُكَ خيرَ مُعِينٍ لي منذ خطواتي الأولى. أُلهِمتَ الصبرَ!

سعدي يوسف (لندن)

إلى الأخ العزيز د. سماح إدريس حفظه الله.

نعزّي أنفسَنا وعائلتكم الكريمة، وعلى رأسها الفاضلة والدتكم، في رحيل أخينا وأستاذنا ومعلِّمنا الدكتور سهيل إدريس، طيّب اللهُ ثراه، وأسكنه فسيحَ جناته.

بين كلّ صفحة وأخرى من مجلة الآداب تبقى روحُه العربيةُ التقدميةُ المتوثّبةُ شاهدًا على التنوير والإقدام والحداثة التي أَسّس لها في مجلته ومجلتنا من المحيط إلى الخليج، ركيزةً لا تنهدم. وبين غلافيْ كلّ روايةٍ صدرتْ له، أو نشرتْها دارُه (الآداب)، إلهامٌ متجدّدٌ، وكشفٌ متنبِّئ، وقلمٌ ملتزمٌ، وعقلٌ واعٍ بمتطلّبات أمته في معتركاتها.

عزاء من مجلة **العربي**، ومن كلّ عربي. ولا يواسينا سوى حضورِ كلماته، وبقاءِ منجزه، مجلةِ الآداب ودارِ الآداب، وسيرةِ سلالته التي تُكْمل المسيرة.. وأنا على يقينٍ من ذلك.

سليمان العسكري (الكويت)

إلى آل إدريس المحترمين،

لقد تلقّيتُ ببالغ الحزن والأسى نبأَ وفاة المغفور له الدكتور سهيل إدريس. وإنني إذ أقف إجلالاً وتقديرًا وعرفانًا لما قدّمه الراحلُ من أعمال جليلةٍ خدمةً للجزائر ودعمًا لثورتها الخالدة، أتقدّم إليكم، أصالةً عن نفسي ونيابةً عن الجزائر، رئاسةً وحكومةً وشعبًا، بأصدق التعازي القلبية بهذا المصاب الأليم، سائلاً الله أن يلهمكم الصبر والسلوان...

إبراهيم حاصي، سفير الجزائر في لبنان

إلى أسرة المرحوم الدكتور سهيل إدريس

علمتُ بمزيد من الأسى وفاةَ الصديق الدكتور سهيل إدريس. كنتُ من الذين يكتبون في مجلة الآداب الغرّاء منذ تأسيسها، وقد كانت بالفعل منبرًا للنضال القومي، فَتَحتْ صفحاتِها لنا، نحن الجزائريين، للكتابة عن نضال الشعب الجزائري، وللشعراء العرب الذين كانوا يتغنّون بالثورة العربية بالجزائر. كما كانت في الخمسينيات من القرن الماضي منبرًا للأدب العربي الحداثي والملتزم، ساهمتْ في إخراجه من التقوقع وجعلتْه ينفتح على الآداب العالمية دون التخلّي عن عمق التراث العربي...

السفير الدكتور عثمان سعدي، رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، الجزائر

عزيزي د. سماح،

برحيل والدكم العظيم الدكتور سهيل إدريس، وَقَعَ علمُ الثقافة عن سارية العروبة. وبغيابه، ينتهي عصرُ العمالقة الروّاد الذين أسّسوا لثقافةٍ عربيةٍ تقدُّمية، بعد أن أَثخنتْ هزائمُ الأمة وجراحُها قلبَه الكبير.

ونحن الذين عشنا في وهج الآداب، وقرأْنا فيها يافعين كبارَ كتّابنا المعاصرين، لا نَمْلك إلاّ أن ندعوكَ إلى الاستمرار في نهج صاحب **الحيّ اللاتيني**، ونشدّ على يدكَ للاستمرار في دفعه وتطويره.

رحم اللّه سهيل إدريس، وأسكنه فسيحَ جنّاته، وعوّض اللّه على الأمة بأمثاله.

أخوك، رياض نجيب الريّس (بيروت)

أفراد عائلة المرحوم الدكتور سهيل ادريس المحترمين،

خسرت الثقافةُ العربيةُ المثقّفَ الملتزمَ والروائيَّ والقاصَّ والمعجمي والمترجمَ والناشرَ والصحافي الدكتور سهيل إدريس. لقد كان، رحمه الله، موسوعةً أدبيةً، ومناضلاً بالكلمة الحرة والموقف الشجاع، فأغنى مكتبتنا العربية. كما قدّم أنموذجًا للمثقف الملتزم بقضايا وطنه

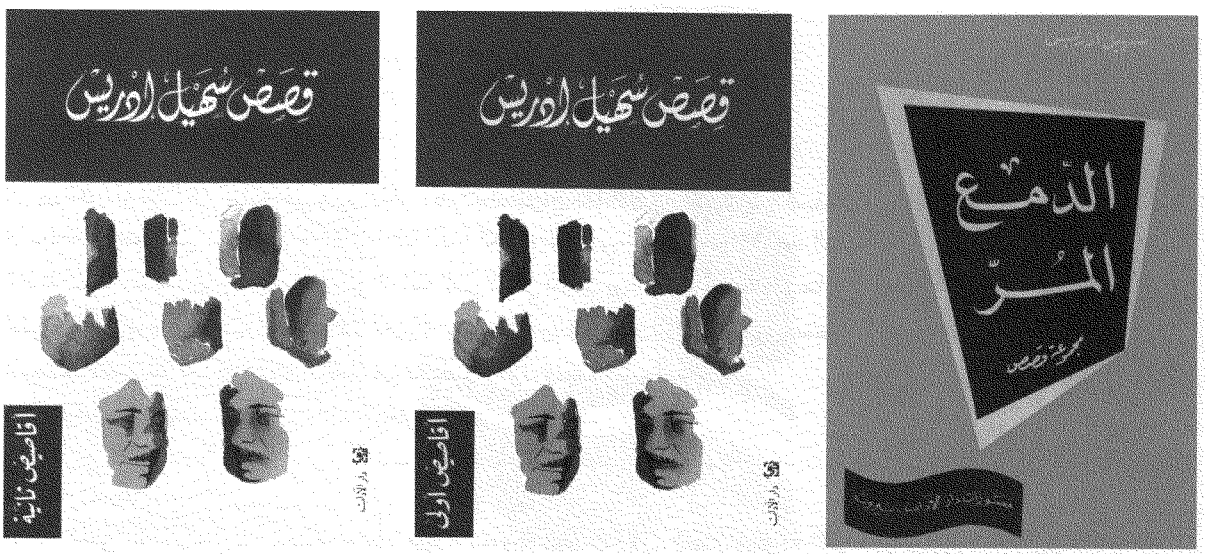

وأمته، في وقت كثر فيه كتّابُ السلاطين. فباسم إخواني أعضاء المؤتمر القومي ـ الإسلامي، وباسمي شخصيّاً، أتقدّم منكم بأحرّ التعازي وأصدقها، سائلاً المولى عزّ وجل أن يلهمكم جميلَ الصبر والسلوان، وأن يُسكن فقيدَ الثقافة العربية الكبيرَ واسعَ رحمته، وأن يسخِّر لهذه الأمة أقلامًا حرةً تتابع مسيرةَ فقيدنا الغالي.

منير شفيق، المنسِّق العامّ للمؤتمر القومي ـ الإسلامي (عمّان)

تلقّينا بمزيد الأسف نبأَ وفاة الأديب والكاتب الكبير سهيل إدريس الذي كان له دورٌ هامّ في الحركة الأدبية والصحفية على امتداد عدة عقود، وكانت لمجلة الآداب التي أسّسها وظلّ رئيسًا لتحريرها عدة سنوات مساهمةٌ نشيطةٌ في حركة التحرر القومي العربية ضدّ مشاريع الهيمنة الاستعمارية الصهيونية وما زالت تؤدّي دورَها هذا من دون تردّد أو تهاون. وأملنا بأنها ستواصل أداءَ هذه الرسالة بعد أن تسلّم رئاسةَ تحريرها سماح إدريس.

عربي عوّاد، الأمين العام للحزب الشيوعي الفلسطيني الثوري

سماح،

تلقّيتُ للتوّ خبرَ وفاة الوالد. أكتبُ باسمي وباسم نوال وجنى، لأشاركَكَ العزاءَ بهذه الخسارة الفادحة للأدب والفكر العربيْين. إنّي أنتمي إلى جيلٍ تلقّى دروسَه الأولى في القومية العربية وفي الأدب العربي الحديث وفي التمرّد والثورة من خلال مجلة الآداب، وروايات وترجماتِ سهيل إدريس. وهذا الفضل، الذي لن أنساه له ما حييتُ، يضاعف الآن من حزني. أقبّلكَ وأشدّ على يديك.

فوّاز طرابلسي (برلين)

الجميل أنّ مَنْ يقضي حياتَه في خلقِ الكلمات، يكون وداعُه أقلَّ حزنًا لأنّه سيظلّ نابضًا في كلماته الباقية. والجميل أننا لا نَعدم الجمال حتّى في أكثر المعاني ألمًا وحزنًا. والجمال هنا هو روحُ سهيل إدريس العزيزة، التي ستظلّ تلفّ الأمكنةَ التي أحبّها في حياته. لا بدّ أنّ رجلاً مثلَ سهيل إدريس ستحمله ملائكةٌ بأجنحةٍ ذهبية!

نادين باخص (سوريا)

الخسارةُ كبيرة، والفقدُ مشترك، والتأسّي بأنّ الراحل تَركَ مدرسةً متكاملةً في أُسرته، وفي الآداب، وفي الثقافة التقدمية التي لن تنسى دورَه في مسيرتها.

كاظم الموسوي (العراق ـ لندن)

سماح،

للتوّ سمعتُ بوفاة والدنا سهيل. صديقي، أتمنّى أن أكون بقربك. وما أؤْمن به هو أنّ أحبابَنا يعيشون في أرواحنا ويقتسمون معنا هواءَ الطريق.

عبد الوهاب العزّاوي (دمشق)

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

العزيز سماح،

كم كنت أودّ لو كنتُ إلى جانبك في هذه الأيام، أللم معك جراحَ هذا الزمن المقيت، ربّما أساعدكَ بحثوةِ ترابٍ على جسدٍ يعزّ علينا أن نستودعَه الأرضَ التي عشق، بين مَنْ ظلّوا أوفياء لهذا الفكر «الخشبي» الذي نَفْخر بالانتماء إليه.

الكلماتُ تبدو ناقصةً، لكنّ العزاء فيكَ وفي العائلة التي لا تني تبرهن يومًا إثر يوم صلابةً وعنادًا لا نحتاج إلى أكثر منهما هذه الأيام.

أملي أن تَنْقل عزائي الصادق إلى الوالدة العزيزة، وإلى الأختين الكريمتين، وإلى كلّ من يستحقّ أن يُعزّى بهذا الغياب.

إنّهم يتساقطون مع هذا الزمن، لكنّ الأملَ في ما خَلّفوا. عزاء ومودّة منّا جميعًا

يسري وهنادي وياسمينة وبيلسان الأمير (قطر)

د. سماح إدريس،

ببالغ الأسى والحزن تلقّينا نبأَ وفاة الوالد العزيز الدكتور سهيل إدريس. وبهذه المناسبة الأليمة نتقدّم إليكم بالتعازي القلبية للعائلة جميعًا. لقد كان للدكتور سهيل إدريس آثارٌ كبيرةٌ في المشهد الثقافي العربي، واستطاع أن يبني مؤسسةً كبيرةً بحجم دار الآداب ومجلة الآداب - وهي بمثابة منارة عربية للمثقفين والأدباء والمفكرين. والراحل الكبير عاصر رجال الثقافة والفكر العالميين، وعرّف القارئَ العربي بأعمالهم الأدبية والفكرية. لقد كان صاحبَ رسالة، ومناضلاً قوميّاً عربيّاً، ومدافعًا عن قضايا أمتنا العربية في التحرر والاستقلال، وعن المقاومة في فلسطين ولبنان والعراق، ووقف سابقًا إلى جانب المقاومة الجزائرية في التحرر وكتب عنها، وقلمُه كان دائمًا مدافعًا عن قضايا الحق العربي. كما أبقى الآداب حارسًا للذاكرة العربية المقاومة، والثقافة العربية التحررية الإنسانية. أحببناه قبل أن نتعرّف إليه ونعرفَه عن كثب ونلتقيَ به: فقد عرفناه بما كرّسه من نهج أدبي راقٍ، نهج المثقف الذي كانه وكوّنه كبارُ المفكّرين والمثقفين الأكاديميين من أمثال الراحل إدوار سعيد. وعرفناه صانعًا للأدب والأدباء، زارعًا بذورَ المحبة والنقاء والحرية والنضال في حقل الثقافة. رحم الله فقيدَنا الدكتور سهيل إدريس، ونسأل اللهُ أن يلهمكم الصبرَ والسلوان.

محمد العبدالله، فاضل الربيعي، سيف العائدي، ماهر اليوسفي عن «مركز الغد العربي للدراسات» ومكتب الدكتور جورج حبش (دمشق)

عائلة د. سهيل إدريس الكرام،

تلقّيتُ ببالغ الحزن والالم نبأ رحيل الأب والأخ والصديق والأديب الكبير الدكتور سهيل، الذي كان بالنسبة لي الأخَ الأكبرَ والصديقَ الأعزّ. أعزّيكم بوفاته، وأعزّي نفسي، وأتمنّى أن نظلّ أوفياء لذكراه، فننهض بعبء الرسالة الثقافية والقومية التي حملها على مدة نصف قرن: رائدًا من روّاد الفكر القومي، ومدافعًا شجاعًا عن الأمة وإنسانها، وحاملاً لمبادئها الخالدة، فقدّم الكثير، وتحمّل الكثير، وظلّ على طريق العروبة: لم يَهنْ يومًا ولا حادَ، وظلّ والآداب على رسالته الثقافية والفكرية إلى الإنسان المتطلّع نحو غد أفضل. وإذ نودّعه اليومَ وهو يمضي إلى مثواه الأخير، راجين له طيبَ المقام في جنّة الخلد، إنما تودّعه الأمةُ العربيةُ معنا: واحدًا من أبنائها المخلصين البررة الذين قدّموا حياتَهم ووضعوا فكرَهم في سبيل مجدها ورفعتها. عوّضنا الله بكم، وسدّد خطاكم على الدرب الذي رسمه الراحلُ الكبيرُ لنا ولأجيال من المثقفين العرب.

ماجد السامرائي (بغداد)

د. سماح،

ألمنا خبرُ وفاة الوالد د. سهيل إدريس. وقد فقدنا بفقده مثقفًا قوميّاً كبيرًا، وأديبًا جامعًا كثر إنتاجُه. وقد خسرتْه الثقافةُ العربيةُ في هذا الظرف العصيب. كنّا بحاجة لأن يبقى بيننا، وأن يعطي المزيدَ من العطاء، رغم غزارة إنتاجه كروائي وباحث ومعجمي ومحرِّر مجلة. (هل حقّاً توقّف قلمُه عن الكتابة؟). إنّنا نعلن حزنَنا، ووقوفَنا إلى جانبكَ وجانب الوالدة في هذه اللحظات لمواصلة المسيرة الثقافية الكبيرة للفقيد د. سهيل إدريس. رحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيحَ جنانه، ولكم الصبر والسلوان. والعزاء أنه باقٍ بروحه وبأدبه وإنتاجه.

ناجي علوش (عمّان)

غادرَنا أستاذُنا الكبيرُ الروائي الراحل والكاتب والمفكّر ورجلُ الحداثة والعروبة سهيل إدريس في وقت تحتاج فيه حالتُنا العربية، سياسيّاً، وأدبيّاً، وفكريّاً، إلى أمثاله: فهو مدرسةٌ تعلّمنا منها كيف نقرأ، وكيف نفهم، وكيف نفكّر.. كما تعلّمنا كيف نكتب. عشنا معه في رواياته .. وعشنا معه في مجلة الآداب التي شكّلتْ جمهوريةً عربيةً اتّحد فيها الأدباءُ العربُ، في وقتٍ فشلتْ فيه الدولُ العربيةُ في توفير الحدّ الأدنى من التضامن.

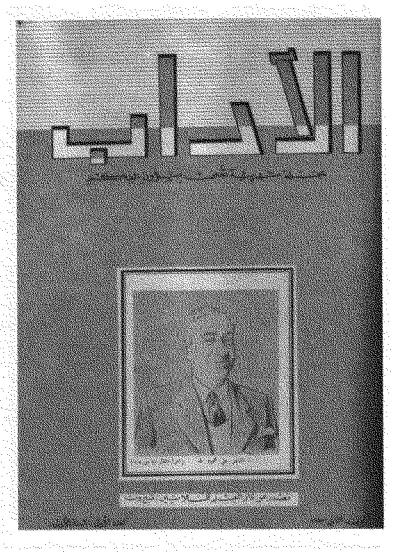

يحزننا كثيرًا أن نقف مودّعين أستاذَنا الكبير بعيونٍ دامعةٍ، ونفوسٍ كسيرة. لكنْ يعزّينا أنّ الدفّة انتقلتْ من جيل إلى جيل، وأنّ رايةَ سهيل إدريس ستبقى مشرّعةً في الأعلى، تتحدّى رياحَ الفرقة والتشرذم والتخلّف، نستمدّ من شموخها إرادةً على مواصلة المسير.

أسرة تحرير مجلة الحرية، الناطقة بلسان الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

العزيز سماح،

يبقى رحيلُ الآباء حدثًا غيرَ مقبول رغم كلّ التهيّؤ له بحكم المسار الطبيعي للأشياء، أو ما هو مدرَك ذهنيّاً. ويبقى فقدانُ سهيل إدريس خسارةً لا تعوَّض، لإنسانٍ استثنائيّ بكلّ معنى الكلمة، أثّر في تشكيلِ وعيِ كلٍّ واحدٍ منا. يا لَلْمهمةِ الصعبةِ الملقاةِ على عاتقكم، يا أبناءه والورثةَ المباشرين للصرح الهائل الذي بناه...

نهلة الشهال (باريس)

أخي سماح،

رحل رائدُ العروبة المقاتلة والديمقراطية التقدمية. غاب عنا المناضلُ الصلبُ ضدّ الطغيانِ والاستبدادِ وصيارفةِ المال السياسي الحرام. تسامى الرجلُ الذي غرس نباتات الحداثة والتواصل الإنساني والحرية الملتزمة. الصبر على الفاجعة، ومزيدًا من الصلابة ضدّ الأشرار والبغاة.

أخوك المفجوع، طارق الدليمي (العراق ـ سورية)

ترجّل، أخيرًا، فارسُ الكلمة المضيئة والموقف الأصيل ومضى، عاطرَ الخطى، إلى الملإ الأعلى. في قلب الميدان المحتدم أمضى خمسين عامًا، لم يهدأْ له قلمٌ، ولم يخفتْ له صوتٌ، بل بقي، في مهبّ الشدائد، شامخَ القامة، إلى أن أصابه سهمُ القدر في صميم هيكله، فأقعده، ولم يلبثْ أن أسلمه إلى الراحة الكبرى.

إنْ رَحَل سهيل إدريس عن مدار العيون، فهو باقٍ في ضمائر الأجيال العربية المتعاقبة وفي عقولها: الأجيال التي استضافتها الآداب و«دارُها،» والتي استضاءت بمصابيح المؤسَّستيْن المتألّقتيْن.

إلى روحه الزكيّة نتوجّه بعاطر التحية، باسم «المجلس الثقافي للبنان الجنوبي» الذي يعتزُّ بتاريخ علاقته الوثقى بالراحل الكبير.

حبيب صادق (بيروت)

الأعزاء آل إدريس،

لا أشعر بالحزن العميق وحده أمام فقدان الدكتور سهيل إدريس، ولكنني أشعر أيضًا بأنني فقدتُ جزءًا عزيزًا من نفسي. ذلك لأنّ علاقتي به، منذ مطلع الستينيات الماضية، ظلّت ترسم لي كثيرًا من مساري الأدبي، في الطريق الذي كرّسه لنفسه، وعلى حساب نفسه: إطلاق الأدباء.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

ومع أنّني لم أَستوعبْ هذا الرحيلَ بعد، ولا أدري كيف سأتعامل معه، فإنّني أقفُ بإجلال أمام حزنكم جميعًا، وأنتم الأقربون إليه، وأتمنّى له الرحمة، ولكم الصبر والسلوان في مصابكم الأليم، الذي يخصّكم أولاً، ويخصّ الثقافة العربية كلها معكم.

لكم مني خالصُ العزاء في مصابٍ يَصعب أن يعوَّض، لولا علْمُنا أنها الحياة!

وليد أبو بكر (رام الله)

سماح،

وجعُ رحيل سهيل إدريس بكلِّ ما يعنيه طالنا جميعًا. في صباحِ ذلك اليوم كان الثلجُ يغطّي تلالَ القدس بطبقةٍ من البياض الحزين، ولم أكن الوحيدَ هنا الذي كان قلبُه معكم في بيروت.

نجوان درويش (القدس)

عزيزي سماح،

... أشدُّ على يدك معزِّيًا بفقيد عربي كبير تَرَكَ بصماتِهِ على أجيال متلاحقة من أبناء الثقافة العربية الحرة، التي لأجل أمثاله فقط يُمْكنها أن تذرفَ دمعَ الحِداد والأمل. وأذكّركَ بما كتبتَه لي يومًا على هامش دراسةٍ عن الصحافة في بيروت كنتُ أنوي نشرَها في الآداب. علّقْتَ يومَها بالآتي: «ليست الوراثةُ عيبًا إذا كان الوريثُ كفوءًا.» فامضِ يا سماح بالأمانة والأمل على الطريق التي دشّنها لنا سهيل إدريس.

محمد علي الأتاسي (بيروت)

تنعى الأمانةُ العامةُ لمؤتمر الأحزاب العربية أحدَ أهمّ أركان الفكر والثقافة والأدب العربي الدكتور سهيل إدريس، الذي اقترن اسمُه لأكثر من نصف قرن بمجلة الآداب، كبرى المجلات الأدبية في الوطن العربي على امتداد نصف القرن الماضي. لقد كان إدريس فنّانًا مبدعًا أصيلاً وحداثيّاً في نتاجاته القصصية والمسرحية، وفي حسن اختيار ترجماته التي فتحْت ـ كما فعلت الآداب ـ الأبوابَ العربيةَ على الآداب الأجنبية في روائعها. ولكنّنا نقف عند مجلّة الآداب بخاصة، لأنهّا كانت المدرسةَ التي أفردَتْ صحائفَها لكلّ البراعم والمواهب، فقدّمتْ على صفحاتها الآلافَ ممن هم اليوم كبارُ الأدباء في جميع أقطار الأمة مشرقًا ومغربًا. بل وجاء إصدارُها في حينه تمامًا: فإذا كانت الأمةُ مدينةً لمجلتَي **الرسالة** و**الثقافة** اللتين عَرّفتا وقدّمتا للأمة في النصف الأول من القرن الماضي جيلاً من عمالقة الأدب العربي، فإنّ آداب سهيل ادريس هي ذلك الأيْك الذي التقت في رحابه آلافُ الأقلام التي وَجدتْ فرصتَها في النماء والعطاء على أديمها، فتقدّمتْ من خلالها إلى فضاء الأدب العربي واثقةً بأنّها حصلتْ على الإجازة والتأهيل.

إنّ الأفق الذي امتدّ رحيبًا أمام المبدعين لم يقتصِرْ على النشر في الآداب، بل احتضن إصداراتِهم من خلال دار الآداب، هذه الدار التي مهّدتْ للفكر والثقافة العربية المعاصرة الطريقَ إلى القارئ العربي وأتاحت عرضَها ونقدَها على صفحات الآداب.

ولعلّ أهمّ ما يسجَّل لصاحب الآداب أنّه استطاع أن يحافظَ على حياتها طوال العقود الماضية، بالرغم من الأنواء والأعاصير والأمواج التي أحاطت بموطن صدورها، في مثابرةٍ ومكافحةٍ وعنادٍ ليس ضربًا من المبالغة وصفُها بأنّها عمليةٌ نضاليةٌ ضاريةٌ حالَفَه فيها النصرُ الصعبُ والعسير... إلى أن انتقل بها في سباق التتابع إلى نجله د. سماح الذي أفاء عليها تجديدًا في المضمون والمنهج جَدّد شبابَها، وحَفِظَها كأهمِّ معْلمةٍ ثقافيةٍ من المحيط إلى الخليج، بلا نفطٍ ولا ثراءٍ إلاّ الإيمان بالرسالة. وهذا سرُّ خلود سهيل إدريس.

تحترق الأصابعُ وتظلّ تَقْبض على جمر الموقف والرسالة.

رحمك الله أيُّها الرائد الجليل، والعزاء والسلوان لكلِّ مَنْ عرف قَدْرَك، ولرفيقةِ دربك عايدة مطرجي، وللربّان الجديد الأخ العزيز د.سماح، وللأسرة جميعًا.

عبد العزيز السيّد، الأمين العام لمؤتمر الأحزاب العربية

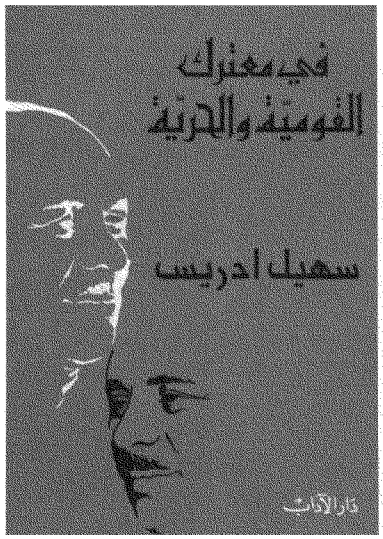

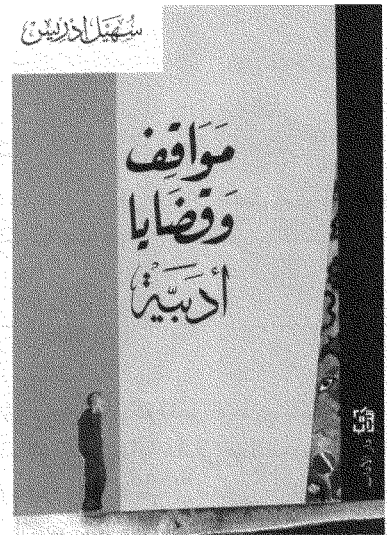

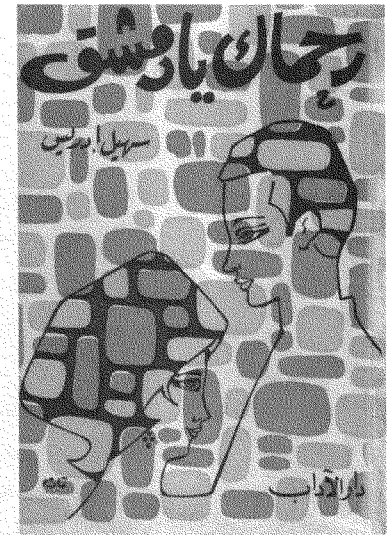

أخي الدكتور سماح إدريس المحترم، سلاماتُ فلسطين والأردن

تأثّرتُ كثيرًا برحيل معلّم الأجيال، الروائي، الدكتور سهيل إدريس، الصديق، والأستاذ الذي أعطى عُمرَه كلَّه للثقافة العربية وخدمتها، مُدافِعًا عن الخطّ القومي التنويري، في عصر الانقلابات العسكرية، وعصر تأسيس الانعزالية الفكرية، والقمع الثقافي، والاستبداد. يومَها، كانت بيروتُ منارةَ التعددية النوعية، تحتمل الرأيَ الآخر، وكانت مجلةُ الآداب هي العنوانَ المُشعَّ لكلّ المثقفين العرب. وكنتَ إذا نشرتَ قصيدتَكَ أو قصتَّكَ أو مقالَكَ النقدي في الآداب، فإنَّ الوطن العربي كلَّه كان يقرأ القصيدة والقصّة والمقالة؛ بل يكفي أن تنشر في الآداب لتصبح علامةً مُسجلَّة. لقد كانت الآداب، وماتزال، نهرًا دائمَ الجريان: تمتصُّ التيارات الجديدة، ولا تُهمل الأجيالَ التي بدأتْ ناشئةً على صفحاتها. وأصبحتْ تقود حركةَ الأدب العربي الحديث، سابقًا ولاحقًا. إنّها السجلُّ الحقيقي لحركة الثقافة العربيّة، منذ عام ١٩٥٣ وحتى الآن.

لقد أصدر سهيل إدريس روايتَه **الحيّ اللاتيني** لتكون من أوائل الروايات العربية التي تعالج موضوعَ الشرق والغرب (...) ولقد قرأتُ مؤخّرًا مذكّراته، فأعجبتُ بشجاعته في البوح. سهيل إدريس [الأديب] علامة مركزية من علامات الأدب العربي الحديث. أمّا سهيل إدريس الناشر، فله فضلٌ على الروائيين والشعراء والنقّاد العرب جميعًا. وكان سهيل إدريس، المثقّف العُروبي الديموقراطي، الذي لم يتزحزح عن موقفه قيدَ أنملة، واضحًا وصريحًا في معاركهِ الفكرية. وأنا هنا أقرّر حقيقةً موضوعيةً، وهي أنَّ الآداب آنذاك كانت موضَع إجماع عند معظم الكُتّاب العرب الكبار والشباب. يومَها كانت مجلّتا **شعر** و**حوار** تمثّلان الخطّ الانعزالي الذي صاغه شارل مالك ويوسف الخال، ولم يكن يقرأهما سوى حفنة ضئيلة من مثقفي النخبة. أقول ذلك لأنَّ تأثير الآداب كان هو الأهمّ، ولم تكرّس «الدراسات الأكاديمية» حتى الآن لدراسة ما قدّمته الآداب في شتّى المجالات الأدبية والفكرية.

سوف يتذكّر الفلسطينيون، بالتحديد، ما قدّمته، وماتزال تقدّمه، الآداب لقضية فلسطين وثقافة فلسطين. فعلى صفحاتها لمعتْ أسماء شعريةٌ فلسطينيةٌ من الوطن والمنفى، أذكر منهم: معين بسيسو، وفدوى طوقان، وسميح القاسم، ومحمود درويش، وأحمد دحبور، ومريد البرغوثي، وعز الدين المناصرة، وغيرهم كثير. وعلى صفحاتها، كنّا نقرأ قصصَ غسّان كنفاني، وسميرة عزّام، ومحمود شقير، ورشاد أبو شاور، ويوسف شرورو، وغيرهم كثير. وأصبحت الآداب أكثر راديكاليّةً منذ مطلع التسعينات، تجاه إشكالات قضية فلسطين، وهي تؤْمن ـ كما فهمتُ ـ بعدم شرعية دولة إسرائيل، لكنَّها تركتْ هامشًا للاجتهادات الوطنية. وفضحت الآداب العولمةَ المتوحشةَ بالتركيز على مقاومة العولمة الأميركية، التي تشترط عند منحنا «تكنولوجيا الحداثة» أن نَقْبل بالتطبيع مع دولة الاحتلال النووي لفلسطين! لقد وقفت الآداب في عصر سهيل إدريس، الشاهدِ الصادقِ، مع المقاومة والحداثة؛ وواصلتْ ذلك بتألّقِ عنفوانها في عهد سماح إدريس.

أخي سماح، هذه التداعيات تفجّرتْ أمامي عندما علمتُ بنبإ رحيل سهيل إدريس، الأب الروحي لنا جميعًا. لقد عرفتُه لأوّل مرّة عامَ ١٩٦٥ في القاهرة المحروسة، بشكل شخصي، وكان قد نشر لي مقالاً في ذلك العام أو مقالين. وكنتُ أتوهّم آنذاك، إذْ كنت شاعرًا شابّاً، أنه عندما يكتشف عمري، فسيتراجع عن الاهتمام بقصائدي. أخذني إليه، في الفندق، الراحل صلاح عبد الصبور. ومنذ عام ١٩٦٥، بدأتُ رحلتي الشعرية مع الآداب. نشر سهيل إدريس كلَّ ما أرسلتُه إليه من قصائد ومقالات نقدية، باستثناء قصيدة واحدة، عنوانُها «أضاعوني،» إذْ قال لي: «لقد مُنعت الآداب من دخول ثلاثة بلدان عربية قبل شهور، فهل تَقبَل أن تُمنع في خمسة؟». وافقتُه، وظلَّ كلّما التقينا يتحدّث كما لو كان يعتذر. وفي المرحلة التي عشتُها في بيروت حتى عام ١٩٨٢، لم تنقطع زياراتي له، رغم أنّني لم أكن صاحبَ حاجة، إذْ نشرتُ دواويني كلَّها خارج دار الآداب، ولكنّه سهيل إدريس! إنّه المركزُ الثقافيُّ للثقافة العربية كلِّها. وتلك الشقّة المتواضعة في الخندق الغميق هي التي تخرَّجتْ فيها حركةُ الشعر الحديث!

عزّ الدين المناصرة، جامعة فيلادلفيا (عَمّان)

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
وداعًا أيّها الأب المؤسّس

الأستاذ سماح إدريس، وجميع أفراد العائلة الكرام

تلقّت الأوساطُ الثقافيةُ في الأردن خبرَ رحيل والدكم الروائي الكبير سهيل إدريس بالأسى والألم والحزن لفقده. وبرحيلِ مؤسِّس دار الآداب، تفقد الحركةُ الثقافيةُ العربية رجلاً صلبًا، ومبدعًا مهمّاً، ورائدًا من رواد حركة النهضة العربية...

سعود قبيلات، رئيس رابطة الكتاب الأردنيين

سماح وكيرستن والطفلتيْن،

باسمي، وباسم «فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية،» نتقدّم إليكم بأحرّ التعازي بفقدان أحد أعلام العالم العربي الأديب والمثقف والمناضل المخضرم سهيل إدريس، متمنّين أن تكون هذه الفاجعة نهايةَ مآسي هذا العام. لقد جاء هذا العامُ وفي جعبته قرارٌ بأخذ نخبة من الأشخاص لا يمكن تعويضُهم ممن أسّسوا وعملوا بأفقٍ توحيديّ مبدئيّ صادقٍ وملتزم بقضايا أمتنا العربية، وعلى رأسها الوحدةُ العربية وتحريرُ فلسطين والحؤولُ بين العقول العربية واستدخال الهزيمة، بعيدًا عن الفئوية والمصالح الذاتية. ولكنْ، كما قال سميح شقير، «لو رحل صوتي ما بترحل حناجركم»؛ فأثرُهم سوف يبقى، وسيجد له حاملاً في الأجيال القادمة، وسيبقى فكرُهم نقطةَ الضوء والأمل في عالمٍ يسير إلى العتمة. وهذا هو عزاؤنا الوحيد بفقدانهم. لكم منّا كلُّ التضامن والاحترام.

خالد قطامش (البيرة - فلسطين)

أفراد العائلة الكريمة...

أقول - وعميقُ الحزن يغمرني - إنّ خسارتكم الفادحة هي خسارةٌ مشتركةٌ لنا ولكم معًا وجميعًا. لقد كان الدكتور سهيل قامةً عملاقةً في الأدب والفكر والتأليف والريادة والتصميم على دعم المواهب الصاعدة وخَلْقِها في العالم العربي بأجمعه. لم أكتبْ له روايةً آملةً أن يَقْبلها، بل إنّه - كما تَعْلمون - قرأ في داخلي روايةً أعجبتْه وآمن بجودتها **قبل** أن أكتبها، فأصرّ على إخراجها إلى النور.. فانتظَرَها وأحبَّها قبل أن يقرأها. وهذا وسامٌ تركه الدكتور سهيل على صدري، وذكرى لن أنساها...

أُسيْمة درويش (لندن)

الأخ العزيز الدكتور سماح إدريس

باسمي واسم «اللجنة الوطنية لمقاطعة البضائع والمصالح الأميركية في سورية،» نتقدّم لكم ولعائلتكم الكريمة ولأسرة الآداب بأحرّ التعازي بفقيد الأدب الملتزم بقضايا الأمة والوطن، الرائد التنويري الدكتور سهيل إدريس، الذي برحيله يَفْقد الأدبُ الحرُّ والمناضلُ فارسًا ومربِّيًا. وعزاؤنا أنكم على دربه تتابعون حملَ الشعلة.

د. نبيل مرزوق، منسّق اللجنة (سورية)

السيدة الفاضلة عايدة مطرجي إدريس، الأخ الفاضل سماح ادريس

بلغني، مع عميق الحزن والأسى من ابنتي فدوى، نبأُ انتقال ذلك المناضل الأبيّ سهيل إدريس إلى الرفيق الأعلى، فأرجو أن تتقبّلوا أحرّ التعازي وأصدقَها، مع الثقة باللّه بأنّه سيجازي الفقيدَ خيرَ الجزاء على ما بذله من جهدٍ لإحياء هذه الأمة وإيقاظها لأداء رسالتها والحفاظ على هويتها. لقد كان، رحمه الله، مناضلاً أبيّاً لا تلين له قناةٌ في أشدّ الظروف وأقساها. ومع أنّ الظروف لم تسمحْ بلقاء، إلاّ أنّنا تلاقَيْنا في عالم الفكر والهدف، وكانت دارُ الآداب هي التي نَشرتْ لي أولَ كتاب قبل أكثر من نصف قرن، **معنى الحرية في العالم العربي**. وكان تجاوبُ الفقيد لنشره تجاوبًا مع الفكر القومي ورفضًا لروح الهزيمة التي شاعت في أعقاب اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨.

لم يمت مَنْ ترك الآداب وراءه صرحًا شامخًا ما زال يَرْفض الاستسلامَ، ويدافع عن الحقّ، ويستهض الهممَ. ما مات مَنْ رأى في حياته ثمرةَ نضاله، هو وزوجتُه رفيقةُ المبدإ والفكر والنضال، عميقةً أبيّةً شامخةً في ولدهما سماح الذي حَمل الرسالةَ والراية. لقد التحق الفقيدُ بالرفيق الأعلى وهو مطمئنٌّ واثقٌ بأنّ الرسالة التي ناضل من أجلها قد تعمّقتْ جذورُها وأنّه ترك وراءه مَنْ يرعاها...

د. أنيس مصطفى القاسم

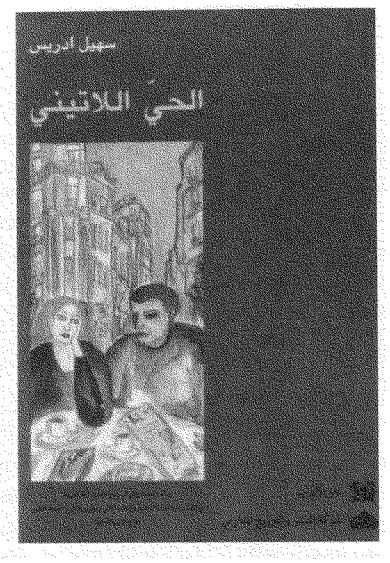

العزيز سماح إدريس، تعازيَّ الحارة.

كانت هنالك حاجةٌ ليُتمِ أكبر، فاستكملها سهيل إدريس! لقد ماتت معه معانٍ كان يكفي اسمُه لحراستها. كان صوتًا، حينما كان الآخرون صدًى. وربما عجز قلبُه عن احتمالِ كلِّ هذا الخواء...

نصر الدين اللواتي، تونس

أخي سماح،

لم يكن الأب سهيل إدريس والدًا لك وحدَك، بل هو أحدُ آباء هذه الأمة الكبار.

رحيلُه يعني لنا سقوطَ شجرةٍ وارفةٍ من أشجار بستانِ ثقافتنا القومية، شجرةٍ تركتْ خلفَها بذورَ الخيرِ والعطاء...

سلام عبود (السويد)

أخي العزيز د. سماح،

اِسمحْ لي أن أتقدّم منكَ، ومن الوالدة الفاضلة، ومن جميع أفراد عائلتكم الكريمة، وجميع العاملين في مجلة الآداب ودار الآداب، بأحرّ التعزية بوفاة أستاذنا الكبير سهيل إدريس.

تركتُ الحزب الشيوعي سنةَ ١٩٦٤. وكان لديّ شعورٌ كَمَنْ خَرَجَ من شرنقة، وبحاجةٍ لاكتشاف جديد للمحيط الذي نعيش فيه، دون أن نضيع البوصلةَ. وكانت مجلةُ الآداب حينذاك أحدَ أهمّ اكتشافاتي. وكنتُ من قرّائها المدمنين، إذ وجدتُ فيها دعامةً وطنيةً وقومية، ومنارةً فكريةً تقدميةً لباحثٍ عن الحقيقةِ من جديد. طبعًا، سهيل إدريس كان روحَ الآداب. ويمكنني الاعترافُ بدون تردّد بأنّني كنتُ تلميذًا صغيرًا لديه؛ وبأنّ الآداب أعانتني أيّما إعانة على أن لا أُضيِّع البوصلة.

مهما قلنا، لن نستطيع أن نفيَ هذا الرجلَ حقّه: فهو كان، بشخصه الفرد، وبكلّ تواضعه غير المتكلّف، «حزبًا» أو مدرسةً كاملة. وإنّ ما يعزّينا، ويَدْفعنا إلى أن نقولَ له «نم قريرَ العين يا كبير،» هو أنّ روحه النوّارة ستظلّ ترافقنا وتنير لنا الطريقَ في مدرسة الآداب التي كَرَّس لها حياتَه الخلاقة.

جورج حداد (بلغاريا)

أخي سهيل، أخاطب روحَكَ السمحةَ، معاتبًا لأنّكَ تركتني خلفَكَ باقيًا في هذه الحياة الدنيا الدنيئة. كن واثقًا بأنّني سألحقُ بكَ قريبًا إلى الملإ الإعلى، حيث سنلتقي كما التقينا في الحيّ اللاتيني في باريس، وفي دارِ الآداب في بيروت. فرحمة اللّه عليكَ في الدنيا وفي الآخرة، والصبر والسلوان لآل إدريس الكرام.

إميل الشويري (دمشق)

Dear Samah,

Like thousands upon thousands, we mourn the passing away of a distinguished literary and patriotic figure, Suhail Idriss. His indelible mark on Arab literature and more importantly on Arab national aspirations will remain visible for a long time. I am sure you will follow his footsteps and keep this tradition alive. May I express my sincere condolences to you and your family. May his soul rest in peace. His memory will remain with us.

Salman Abu Sitta (London)

Dear Dr. Samah,

This has been a bad day for me full of memories and reminiscences. The memories of Suhail Idriss's mission remind us of how rare men like him have been among us in these very bleak days. His voice, courageous and insistent, hopeful and influential, will be missed a great deal as we see the worthless among this nation come up and gain control. But he leaves a legacy which, thanks to the mentor and guide that he has been, is well preserved by you, Samah. I am so sad at his death and feel deeply with Aida; but his life, we all know, has not been in vain. He was the positive voice of our generation, the builder and mover, the vigilant observer and preserver, and his legacy will continue and bear fruit.

My heartiest condolences to Aida and Rana and Raida, and of course to you

Salma Khadra Jayyusi (Cambridge)

Dear Dr. Samah Idriss,

Please accept my deepest condolences at the passing away of your father, Dr. Suheil Idriss, who has eminently served the cause of modernization in Arabic literature and Arab society. He will be remembered for his relentless struggle against old-fashioned practices and ideas; for his defense of Arab national causes like those of Palestine, Algeria, and others; for his novels, short stories, and plays embodying the concept of commitment (iltizam) in literature; and for his excellent translations from modern French literature, and his effective service in Arab literary associations and groups. May his legacy be preserved and continued through your efforts in *Al-Adab* magazine and in Dar Al-Adab publishing, and may you and your family have consolation.

Professor Issa J. Boullata (McGill University, Montreal)

Samah, this is very sad news, coming to all of us in a very troubling time. The passing of Suheil Idriss is not only a great loss to you and his small family, but also to the Arabs as a nation, to their culture, and modern endeavour to rise again.

Basheer Nafi' (London)

Dear Samah,

This is a note of condolences, and an expression of my deep sorrow to have heard of the loss of Dr. Suheil Idriss, whom I had the honor to meet but once, but have benefited from his stands against injustice, his clear vision of what ails our Arab world, and the example of the engaged intellectual we all admired and loved.

I hope that you, Kirsten, and the children can be granted the patience and the ability to remember that any giant like Suheil Idriss, with his glorious history of patriotic positions, will never die; rather he lives in our hearts, and reminds us every minute how important it is not to give in to the temptation of compromise.

May your loss be bearable, and please accept my deepest condolences and warmest regards.

Prof. George Saliba (Columbia University, New York)

Dear Samah...,

Like many members of my generation throughout the Arab world, I was very sad to learn that your father passed away. For us, his role was instrumental in the making of our modern national culture. The first novel I ever read in Arabic was **Al-Hayy Al-Latini**, and throughout my student days in Jerusalem and later in Rome, *Al-Adab* continued to be a major source of my literary education. It was through his translations that I first read Sartre and Camus.

With his departure, a whole era seems to come to an end. And yet, thanks to you, what he has established shall continue to be like a rock upon which to build, even though our world is replete with ruins and fragmentations.

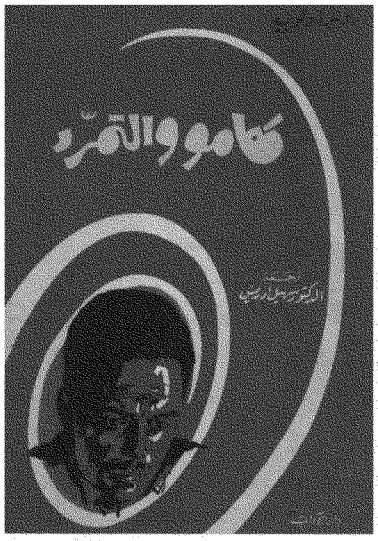

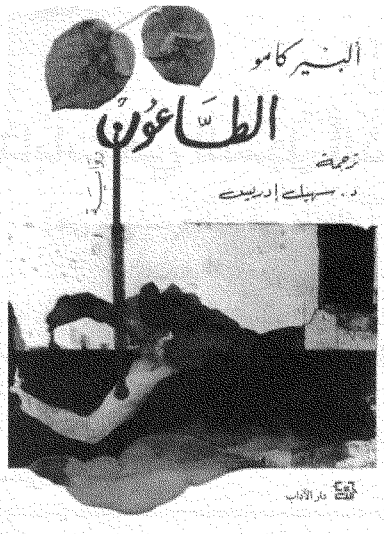

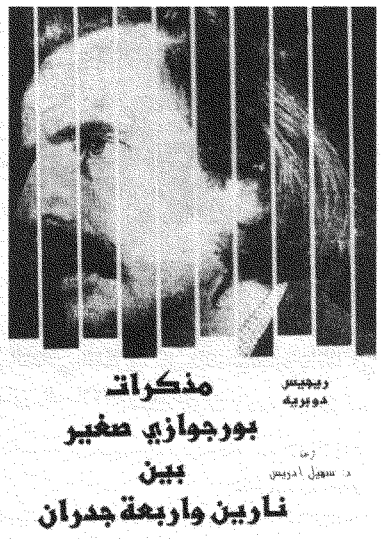

Now that he has finally been freed from the troubles of this world, I hope you will find strength in his memory to go on doing the important work you've been doing that does not only perpetuate his legacy but that continues to open up new horizons in our culture.

Please do convey my sincerest condolensces to your devoted mother, to your sisters, and to all your dear ones who loved him as much as you did.

Kamal Boullata, Washington D.C

Dearest Kirsten, Samah, Aida and Rana

We share your pain and hope time will give you peace and memory of all the good moments. Soheil will always remain in our heart with his marvellous gift to culture and his wonderful family. Best regards and heartful thoughts.

Amina and Sayyed Al-Bahrawi (Egypt)

Dearest Samah,

We received the news of the passing of your father, the legendary Suhail Idriss, with great sadness and sorrow. Please accept our most sincere and heartfelt condolences, as your father was and remains a comrade and teacher to all of us. These indeed seem to be difficult days, losing some of our greats at a time when only the greats can survive. Samah, please know that even from as far away as we are, and despite the wretchedness of exile, Suhail Idriss's print on our Arab collective struggle is engraved deeply and forever in us - for unity, liberation and egalitarianism.

Our condolences to your dear mother and the family, and to all our people wherever an Arab maybe and anywhere liberation rings... Suhail Idriss lives!

The Free Palestine Alliance

Dear Samah,

We all lost a mentor, a comrade, a steadfast and a principled hero who defended Arab causes with courage, without doubt, hesitation, or fear. He'll be missed but his memory lives on in our hearts, minds, and struggle. Our heartfelt and deepest condolences go to you, your family and to our Arab people. We all have to preserve his legacy and stay on his path.

Bi jannat al khuld ya Suheil Idriss.

Michel Shehadeh, USA

Dear Samah,

I always feel words are meaningless when you lose a great person. Nothing can describe the damage. Your father was a great man, an influential spirit, and will always stay in our hearts and minds.

This e-mail is just to let you know that there are people out there offering you love and comfort, even if they can't be around you...

Hany Abu-Assad (Palestine)

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

وداعًا أيّها الأب المؤسّس

كتابات في السجلّ الذهبي

(من كلمات خُطّتْ في منزلك)

آخرَ الكبار في بلدنا، وداعًا...

كنّا، كلُّ واحد منّا، نجد أنفسَنا في شخصيةٍ من شخصيات رواياتك. الحلمُ بالتغيير، التفاعلُ الثقافي الفكري: كلُّ ذلك سنجده دائمًا في آدابـ ك وفي نتاجِك الفكري المتراكم في أجيالنا... علّه يُنتج التغييرَ ويحوّل بلدنا إلى وطنٍ يتجاوز السلالاتِ والقبائل.

سنتذكّرك دائمًا!

د. خالد حدادة، أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني

رجلٌ مثلُ سهيل إدريس لا يعوَّض، كإنسان أولاً، ثم كأديبٍ ومبدعٍ، وأخيرًا كقوميّ ملتزم. رحم اللّه سهيلاً، وأبقى لنا سماحًا ليكمّل المشوار.

شفيق الحوت

خالو سهيل، رحمَك اللّه! عَرفْتُكَ قلبًا وروحًا قبل أن أعرفكَ قلمًا وكتابًا. وعرفْتُكَ مرحًا، عفويَّ الضحكةِ، فرحًا، قبل أن أعرفكَ مريضًا. وتعرّفتُ على الأدب والشعر والفنّ بفضل إبداعك. وهكذا تعرّفتُ على الحب، وتعلّمتُ الحياة، وأحببتُها. ثمّ عرّفني أَلَمُكَ على الصبر والمثابرة، وعرّفني مَرَضُكَ على كرامة الإنسان.

سأحملُ أحلامَكَ في مخيّلتي إلى الأبد، يا ابنَ الخندق الغميق. وسأذكركَ في صلواتي إلى أبد الآبدين.

رحمك اللّه، يا أحبَّ الناس إليَّ، وأدخلكَ جنّاتِ الخلد.

لميس جبري («مِشْ سوسن يا خالو! أنا بنت سوسن»!)

تخرّجتُ من هذه المدرسة، الجامعة التي اسمُها الآداب. وتعلّم فيها جيلٌ عربيٌّ بحجم الوطن كلّه. نحن في السودان نحفظ لـ الآداب دورَها. وما قدّمتْه للثقافة العربية في السودان لا يقدّر بثمنٍ ولا يفنى... ويبقى سهيل رمزًا كبيرًا، له الرحمة والمغفرة.

جمال إبراهيم، سفير السودان في لبنان

نَفْتقدكَ ولو أنّنا لم نفقدْكَ. فأنتَ فينا رائدًا، ومؤسِّسًا، ومبدعًا، وحاملَ قضيّة. وتبقى دربَنا التي لن تنطفئ فيها شعلةُ العطاء، وتبقى أستاذَنا الذي منه نتعلّم لغةَ الحرية.

غسّان مطر، أمين عام اتّحاد الكتّاب اللبنانيين

أستاذنا الأديب والموسوعي، وصاحبُ المواقف الوطنية الشجاعة د. سهيل إدريس، سيبقى في ضمير شعبنا وفي ضمير مثقفينا، النموذجَ والمثالَ وبوصلةَ التقدم.

د. عصام خليفة، أمين عام الحركة الثقافية ـ أنطلياس

لقد عشتُ منذ أواسط الخمسينيات مع الدكتور سهيل إدريس، رحمه اللّه، والسيّدة عايدة، والآداب. ولشدّ ما تعلّمنا منها، وقد أمدّتْنا بكثيرٍ من الوعي والعزيمة ونحن نقرأها من الغلاف إلى الغلاف، ولاسيّما عندما كنّا في السجن.

ما قدّمه الدكتور سهيل وزوجته والآداب للعربية، آدابًا وشعرًا وفنّاً وسياسةً وتركيزًا لثوابت الوحدة العربية، سيظلّ مفخرةً وأساسًا يُبنى عليه. وإنْ كان لنا من عزاءٍ، فضلاً عمّا تركه من تراث، فهو استمرارُ الآداب ومواصلتُها الطريقَ.

فالأمة العربية ما زالت بحاجة إلى الآداب اليوم وفي قادم الأيام. فإلى الأمام يا أخ سماح، وكن قويّاً في مواجهة كلّ الصعاب كما كان العهدُ بوالدك ووالدتك.

رحمة اللّه على الدكتور سهيل إدريس، وأسكنه فسيحَ جنّاته.

منير شفيق

فقدتُ أعمق جزء مني. الأبقى في هذه الروح، هم الراحلون. فأنت باقٍ يا أستاذي الكبير في أعماق روحي.

جوزيف حرب

سهيل الإنسان الحبيب، الظريف، الواسع الأفق، الرحب، والمدافع الدائم عن الحرية، والذي عرف جيدًا كيف يوفّق، في الآداب، بين العروبة والدفاع عن الحرية والحركة الماركسية. سهيل هو صاحب وخالق الآداب، مخرِّجة جيلٍ كبيرٍ وواسعٍ من الأدباء العرب...

لم نفتقده، ولن... فمِثْلُه لا يذهب. إنّه، وآخرين مثله، ملحُ الأرض العربية.

محمد دكروب

اليومَ أعود سنوات إلى الوراء... على سريري.. الساعة العاشرة صباحًا.. ها قد بدأتْ أولى محاضراتي في الجامعة منذ ساعةٍ ونصف، وأنا لا أزال على سريري، أقرأ **الحيّ اللاتيني** لسهيل إدريس.

تمرّ الساعات ولا أترك سهيلاً...

واليومَ أزوره.. متأخِّرًا.. خمسَ عشرةَ سنة! ولكنْ لا أفقد الأملَ في لقائه، إذ لا زلتُ أحتفظ بسهيل إدريسِ **الحيِّ اللاتيني**.

محمد باحميشان

كان لي في شبابي الأول نصّان أقرأُهما في القرية: النصُّ القرآني، وما يصل إلينا من الآداب!

د. أحمد بعلبكي

أُحبُّ جدّي كثيرًا، وعندما قالت أمي إنّ سهيل إدريس مات بكيتُ كثيرًا.

وقالت أمي: «منيحْ لأنو كان يتوجّع كثيرًا.»

حفيدُتكَ، ياسمين نوفل (٩ سنوات)

أحبّ جدي كثيرًا وكان جدّي يمشي ويحكي لي قصص جميلة.

وعندما رجعتُ من المدرسة قالت أمّي: إقرإي هذه الورقة [ورقة النعي] وعندما قرأتها بكيت كثيرًا.

حفيدتُكَ، نور حشّاش (٨ سنوات)

أنا مشتاقة إليك. أعرفُ أنّك في الجنّة في هذا الوقت. أنت كاتبٌ عظيمٌ.

أحبّك

حفيدتُكَ، نايْ إدريس (١٠ سنوات)